

www.alkottob.com

حارس الماعز



الحقوق كافة
محمولة
لاتحاد الكتاب العرب

E-unecriv@net.sy

البريد الالكتروني:

mail :

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت

<http://www.awu-dam.org>

□□

إبراهيم الخليل

حارس الماعز

رواية

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق - 2003

*إشارة:

"- في البدء كان الخراب سيد المكان وسلطانه
ثم جاء الباشاوات ومخافر الدرك."
من تاريخ البلد السري

www.alkottob.com

النصُّ الأوَّلُ
حارس الماعز

www.alkottob.com

-1-
الطريق إلى إيالة الخراب

www.alkottob.com

تهب النسمات رخية عند الأصيل.

فتحرك رؤوس الشجيرات الرعوية، وتقلق حركة العطايا والطيور والذؤبان الحذرة، بينما تكسب الظلال الزاحفة، وأبواق اللون الضهاري والرجوم مهابة جليلة، وسكوناً راسخاً، والسماء سجادة من الياقوت الحار، والنبيد الذهبى، والقرفة، تزحف نحو الانطفاء في العتمة.

فتطلق بادية الشام النفير، تأهباً لانطفاء نهار آخر في عزلة المكان القديس الذي ظل حفيماً بأوثانه، وأرواحه المهوِّمة في الضوء المنتشج، حيث القنوت الرعوي، والطواطم التي فقدت وظيفتها، ولم تفقد تأثيرها السري.

وكان الرجال منشغلين بترتيب شؤون المعسكر.

الجياد وجدت فرصة للراحة، والخيام تنتصب متجاورة، بعد أن نُظف داخلها من الأشواك والحجارة، وقد استقبلت الأرض الأجساد المتعبة بترحاب وحفاوة بالغين، ففارق الوجوه العابسة ذلك الوجوم والإرهاق، بعد تلك الرحلة الطويلة، وسرى ماء الرضا فيها.

- هذا العالم صامت، والصمت عدو غامض.

قال أحد رجال الباشا، يوجه خطابه إلى أحد الحرس، فأجابه:

- صامت أو أخرس، عدو أو صديق لا يهم، كل ما يهمني أن أضع رأسي على الوسادة وأنام.. فالنوم سلطان.

-النوم؟! أهذا كل ما تريد؟

-نعم.. يا صديقي.

وتمدّد على فراشه بكامل ثيابه، غير عابئ بما يجري حوله من حركة وضوضاء، لبشر وأسلحة وحيوانات.

-يا ساقى العطاش.. اسقنا.

دندن سهف المجذوب بصوت هامس، وقد سرّه وجود شجرة الحرمل، هذه المباركة، التي عادة ما يصنع من حباتها سبحة طويلة، يلفها حول عنقه، ويتمتع ببخورها المتصاعد من الموقد في عزلته الصوفية، فيمتلئ بالحنين كما تمتلئ الكأس بالخمرة، ويذهب في تهاويم طويلة، وعذوبة غامرة.

-مولاي.. أعني على القادم.

عاود الدعاء مرة أخرى، وهو يقترب من زوج الماعز الشامي، الذي أصرّ على إحضاره معه، فهو لا يستطيع فراقه، أو التخلي عنه.

ومن بعيد لاح له الباشا، يجلس على كرسيه، وسط ذلك الخلاء العاري، وكان يتنفس من أنفه بصوت مسموع، بلحيته الحمراء الكثّة، وقد وخطها الشيب، وحاجبيه الكثين، وينظر بأجفان ذابّلة، أثقلتها الرغبات الجامحة المحمومة، رغبات هي خليط من الذهب والدم والدماس، وها قد خانها الوقت، أما وجهه المورد، الطافح بالعافية، فقد بدا مسرحاً لانفعالات عميقة، ومتضاربة، بينما الطربوش الأحمر، يستقر فوق هامة، ظلت مرفوعة زمناً طويلاً، لكنها الآن تنكس راياتها، وتخاوي المرارة والوحشة التي لا تطاق، وهو الذي اعتاد صخب القصور، وضوضاء المآذب، وحركة الأبواب الفخمة والسلاح، ويريق الثريات والقناديل، وأبهة الملك والسلطان، التي لا يعرف سحرها إلا من تذوقها.

-يا جبار.

هتف باستغراق.

-يا قويّ.

وحرك أصابعه الغليظة المشعرة، فتحرّكت حبات سبحة الكهرمان الثمينة، وبرق ذهب الخواتيم في يده، فهز رأسه هزة خفيفة، وكأنه يطرد خفافيش الغروب من سماء مستقبله التي كانت صافية كالماس، هذا المستقبل الذي تحدد بشكل مأساوي، لم يخطر في باله قبل أيام، فألح عليه السؤال:

-أية نهاية تنتظرك يا عبد الله باشا!؟

واقترب خادمه العجوز بالنرجيلة والنار، فلاذ ببعض العزاء، وهو يدس المبسم الفضي بين شفتيه الجافتين، وراقب الزخارف الذهبية، والزجاج الأخضر المعشق بصفائه الخالص، والنرجيلة أنثى، تنتصب مزينة بالدنادش البراقة، والخرز الأزرق.

ثم بدأت ثرثرة المياه، وتيجان الدخان الرمادي، تتصاعد من ذهب التبغ المحترق في الأعلى، معلنة بداية طقوس الباشا، وعاداته التي مارسها على مدى عقود من الزمن الألق.

- هل يحتاج مولاي شيئاً آخر؟

- لا.

قال جازماً، وأطبق أجبانه، واندفعت سورة الماء، تمتزج بسورة الروح، وارتعشت الدنادش بخفوت جنائزي، واندفع الدخان من أنفه خيوطاً من الحرير الرقيق، يعبث بها الهواء.

- يظل الباشا صلباً وعصياً على الانكسار، والرهان على هزيمته خاسراً.

قال كاتم سره وخازنه المخلص إسماعيل، وهو ينظم صناديقه، وأوراقه الخاصة، وينتظر الانتهاء من ذلك، ليأوي إلى فراشه، فالرحلة متعبة لرجل عجوز في مثل سنه، والطبيعة قاسية لا ترحم من عاشوا حياة الرخاء والترف في قصور الولايات الأخرى.

وتابع الباشا نفث الدخان بلذة.

وحين لمست أصابعه خشب الكرسي الجالس عليه، اهتز، هذا الكرسي أوصى بصناعته نجاراً رومياً في بيروت، ثم كفته بالفضة، والصدف، وزينه بشعار "لا غالب إلا الله" فكان كلما لمس، سرت إلى جسده عزة السلطان، وسطوة الملك، فناس مخموراً، تشوان بمجد صنعه بزنده وخنجره الذي لا يخون، ولأول مرة اليوم، يدهمه شعور مترمّد وهو يجلس عليه، يفسد عليه لحظات راحته، فعاد إلى نفث الدخان، وكأنه يهرب من شبح خفي.. وتمتم:

- وحده السنديان لا ينحني.

وحمم حصانه الأصيل، فضاغ صوته في ذلك الحماد الممتد، وتحركت الأراول وبنات آوى وطيور الرخم اللابدة، والأرانب القلقة، تحركت الريح، وجاء

الخادم بالجمر، فراقب الباشا أصابعه لأول مرة، وهي تعالج الجمر بالملقط، والرماد يتطاير عباءة للزهو العاري وأعراس الهباء.

كل شيء راكد ركود بركة من الرمل الهاجع.

وأنفاس الرجال تتصاعد، هذا القلق لا يعرفون من أين يأتي؟! أهو المكان أم شيء آخر خالط أرواحهم؟! لا جواب على ذلك، لكن الخلاص جاءهم:

-الله أكبر.. الله أكبر..

علا صوت سهف المجذوب ندياً، عذباً، يقيم الصلاة، ففادت نفوسهم إلى أمان مفترض، ولكنه حقيقي مثل العصب والدم، واصطف رجال الحاشية جميعاً وراه لأداء الصلاة، والباشا يتابع التدخين، وكأن العالم لا يعنيه.

-كان لا بدّ من الشيخ المجذوب.

أقرّ بذلك، وكان زوج الماعز الشامي الأحمر، يتجول بين الخيام بحثاً عن العشب الرعوي والأغصان الطرية، برغم زحف الظلام، وعيون السماء التي تفتحت كعباد الشمس، في القبة الصافية.

...

ليلاً.. قاد الخادم الشموع.

فضاء الصيوان، واتكأ الباشا على وسادة وثيرة متربصاً مثل أسد بابلي، وقد استبدل ثياب السفر بثياب جديدة للراحة، كي لا يبدو ضعيفاً أمام ثعالب الحاشية وداخل الصيوان، يزهو بأناقة ومهابة لائقة، بطنافسه الأرمنية، وسجاده العجمي، وأكوابه الذهبية، ومجامر البخور التي صاغها أعظم صاغة الأستانة، ولا مثيل لها إلا في قصور الخلفاء من آل عثمان.

-هل يأذن مولاي بالعشاء والسماع؟

سأل الخادم بتهديب.. فردّ:

-لا بأس.

ومدّت المائدة للباشا.

وجاء غلامه رشيقاً وسيماً يحمل عوده، ومن ورائه الجارية الفارسية الحسناء، تحمل الرقّ وتغني أشعار الخيام والشيرازي بلغتها، فتحرك الحجر القاسي، فلقد

دفع ثمناً باهظاً للحصول عليهما من تاجر يهودي في حلب، مهمته تخريج القيان، ولحلب أذن في الموسيقى لا تخطئ.

-مولاي..

وانحنى الاثنان أمامه.

...

خارج الصيوان

انصرف رجال الحاشية إلى ترتيب ما تبقى من شؤونهم، وإعداد وسائل الراحة في مهاجعهم، بعد المشاق التي عانوها في الطريق، هذا الطريق الذي اختاره الباشا عن قصد، وما يختاره الباشا لا يناقش.

-في هذه البرية لا صوت يعلو على صوت العدم والموت.

قال إسماعيل الخازن، يخاطب كائناً غير موجود. ثم تابع:

-هنا حيث الخلاء لا سلطان، لا شريعة، لا قانون، لا قوة إلا قوة الأرواح.

واندس في فراشه، هو الرجل عاشر الباشا طويلاً، وعرف كثيراً من خفاياه وأسراره وطباعه، لذا فهو يقدر مزياه وقدراته في القضاء على أعدائه، والإجهاز على خصومه، أما حربه الجديدة، فهي من نوع لم يجربه أحد من قبله، حرب عبثية.

وفي الخيمة المجاورة، جلس الشيخ المجذوب مع زوج الماعز الشامي، يتأمل أضواء الشموع وهي تتراقص، وقد ملأت المكان بنور هادئ، يترك للنفس مساحة للاسترخاء والمودة، فردد:

-أنت السلام.. فاغمر أرواحنا بالسلام.

وساد الهدوء المعسكر، فلا حركة سوى حركة الحرس.

...

بعد أن أذن الباشا لغلامه "إياز" وجاريتته "جلبهار" في الجلوس، حمل الخادم إليه شرابه المعتاد، والنرجيلة والنار، وبدأت طقوسه المتواضعة في السماع بعيداً عن أبهة القصر، والقاعات الواسعة، بنوافيرها ونوافذها المشرعة على سماء من

نجوم وأقمار، حيث الرؤوس تتكس أمامه، والرقاب تعنو، والأفواه تترّم، والسّمّار من كبار القوم.

ومع أول كأس من الشراب، بدأت دندنة العود، ترافقها نقرات الرقّ في تآلف بديع، ودفق صوت إياز منفرداً، رخيماً وكأن في حنجرته نايّاً ذهبياً، يترنم، ثم تبعه صوت جلبهار، أبجّ، ناضجاً ودافئاً مثل كف عذراء، فازدهى الباشا، تفتح وجهه قمرّاً من الدم وجنون الشهوات، والرغبة في جعل خنجره الذي سقاه سمّ الأفاعي، يمزق ألف خاصرة.

كان إياز يغني بالعربية

وجلبهار بالفارسية والتركية، والعود والرق بلغة ثالثة، لا يفهمها إلا مجانيين السماع، ومتذوقو هذه الثمرة المحرمة، التي لا تتاح إلا لمن يملك.

-أمان.. أمان.. يا رب

ورفع الباشا كأسه عالياً، فاندغم الصوت في اللحن، فأدرك قيمة اللذة الخالصة، ومعناها الأزلي، بل اكتشف لذات جديدة، انصرف عنها زماناً إلى النهب وسفك الدماء، وتحصيل الأموال، ومصادرة المغضوب عليها، وانتزاع أسرار مخابئ ثرواتهم بالتعذيب لكسب رضا الباب العالي وحاشية السلطان، وليس كالذهب وسيلة لنيل هذا الرضا والمباركة، وحمد الله أنه فاز في النهاية برأسه سالماً بعد كل مغامراته، فصاح منتشياً:

-فلتكن ولاية للخراب أو الكلاب.. لا فرق.

وأسرع الخادم، يملأ كأس الباشا من جديد، ويخرج إلى خيمته المجاورة، فالباشا يكره وجود أحد من الحاشية في مجالسه الخاصة.

وخارج الخيمة، تتادت غزالات الحماد، وبنات أوى إلى السماع السماوي، ولبدت الذؤبان وراء الرجوم والشجيرات الرعوية، ترقب ما يجري بحذر، وقد هالها النار العظيمة التي أمر الباشا أن تظل موقدة طوال الليل دلالة العزة والمنعة، وقد تحول المكان من المجهول إلى المعلوم.

-يجب أن أقوم بحركة قبل أن تتفاهم الأمور.

قرر الباشا بعد الكأس الأخيرة، وجاء الخادم بالقهوة المرة، قدمها لسيده، فشرب فنجانين، أما الغلامان، فامتنعا مهابة وأدباً أمام الباشا، الذي قد يسمح لهما بقليل من الشراب، فالشراب - برأيه - ابن حرام، يلغي المسافة بين السيد والعبد.

-أكل شيء على ما يرام؟!

سأل خادمه.. فأجاب:

-كما يشتهي مولاي.

-والحرس؟!

-في مكانه يا مولاي.

-حسن..

هزّ رأسه راضياً، ولكن لم يفارقه حذره الدائم.

وآخر الليل أطفأ الخادم الشموع، فساد الظلام داخل الصيوان، بينما ظلت عينا الرجل جمرتين وحشيتين، تتوهجان حتى أطفأهما النوم، فاندفعت أطياف الماضي، وأحلامه تراوده، بعد أن ظنّ كل الظن، أنها اندثرت.

بغداد.. بغداد.

يرنّ الاسم في سمع الباشا رنين الذهب، كلما سمعه يتردد أمامه، في أية مناسبة كانت، فتزهو اللحظة، يتفتح ورد الدفلى، ويشتعل زهر الرمان في البساتين، وسعف النخل في ضوء الغروب، وتمر في البال صبايا البرامكة النادبات، وجواري الرشيد المجلوبات من كل بقاع الدنيا. فارسيات وروسيات وبريريات.

بغداد، حدائق وقصور، وأغنيات حزينة، يردها الصيادون في رحلاتهم الليلية، والملاحون في الحراقات والعشاريات الخاصة، وهي تمضي في الليالي المقمرة، تمزق حزم الضوء على وجه الماء الرجراج، والأسماك لا تنام في دجلة والفرات، والحلم ظلّ يلزم الباشا، يحمله في قلبه عشقاً أبدياً، لا يفارقه، هو الذي لم يعرف العشق أبداً، ولطالما سأل نفسه:

-أيعقل أن يقع رجل في هوى مدينة؟!-

فيأتيه الجواب:

-اسأل نفسك، ألم تفعلها؟!-

لقد فعلها، عشق بغداد منذ اللحظة، التي وطأت فيها قدماه أرضها، فأصبحت له موطناً ومرجعية، هو الصعلوك الوضيع، الذي لا مهنة له سوى القتل وتصفية الخصوم لمن يدفع له أجره. فالأبنية والشوارع والوجوه، أعطته تأريخاً وهوية، بعد كل اغترابه الطويل. فصاح:

- هذه المدينة مندورة لك.. فيجب أن تمتلكها.

لكن صوتاً في داخله سخر منه، سرعان ما أخرسه بفيض من السباب والشتائم، فقد أحس أنه ولد من جديد.

لقد نزلها يومذاك مع رفيق من أمثاله الذين رهنوا أرواحهم للشيطان.

وكان في مهمة فذرة لصالح باشا حلب، لتصفية خصم من خصومه فرّ إلى بغداد خوفاً منه، فكان لابدّ من إسكاته.

قال له صاحب الخان الذي نزل فيه، وهو يحدق في عينيه:

.الرجل من الشام؟

..لا..

.من مصر إذن.

..لا.. من معمورة العزيز.

.إنك لا تشبه التجار.

.لست تاجراً..

قال وهو ينتقي كلماته أمام فضول الرجل.. ثم تابع:

.أنا رسول..

واستدار تاركاً الرجل في حيرة، عابراً إلى غرفته، ليتدبّر أمره، ويخطط مع رفيقه، لتنفيذ المهمة، فالباشاوات يهتمهم سرعة التنفيذ، والدقة، والسريّة، وتلك مزايا القاتل المأجور.

.أيّها البوشناقى.. لم نأتِ إلى بغداد للسياحة والسكر في الحانات.

قال رفيقه بنزق.. ثم استدرك حين رأى عينيه تشتعلان:

- لقد أطلنا.. وباشا حلب ينتظر خيراً منّا، وما لدينا من مال قارب النفاذ، ومكان الرجل عرفناه.

.إنها بغداد يا رجل.

.بغداد تنتظر، أمّا الباشا فلا ينتظر:

.كما تشاء... لن تكون إلا راضياً.

وعند الفجر.. عبر جسر بغداد رجالان مسرعان باتجاه الشام، وقد حمل أحدهما صرّة من القماش بحذر وحرص.

. كما ترى.. كانت العملية سهلة.
. العمل معك رائع...
. هذا الخنجر لا يخون.
وأمام الباشا ألقى الرجل الصرّة، فتدحرج رأس عدوه أمامه، فنظر إلى الرجلين
برضا وارتياح.
. قلت له: سيف الباشا أم ذهبه؟! فاختر السيف.
تمتم بصوت أجش، وواثق.

. لا بدّ من بغداد، وإن طال الزمن.
هكذا عاهد البوشناقي نفسه، وكانت صورة المدينة بقصورها وبيساتينها،
تلاحقه في كل أحلامه، حتى بات مجنوناً بها، وهذا الجنون قاده في رحلة الشرّ
والمجد، كتعويذة حارسة، تقيه مخاطر الطريق، طريق طال نحو الهدف.
. تنال مرادك، وترقى سلم المجد.
قالت له امرأة... ولأنه لا يثق بالنساء، أشاح بوجهه، تاركاً لماء الرضا أن
يسري في عروقه. وقذف بقطعة ذهبية أمامها. فرنت بارتعاش، وكأن بغداد تأتي
إليه، بآرائها وتاريخها، وأيامها، وتسلمه مفاتيحها.
. من جاد بالذهب، ذهب شره.
ولملمت نفسها، ثم اختفت في شارع جانبي، وكأنها مرسلّة لنقول كلمتها
المبشرة، لا أكثر، فردّد:
. لا يأتي ذهب من غير دم.
وتلمّس خنجره الوحشي، وكأنه يستعد لقتال عدو غامض.

النوم في الأزقة القذرة.
يعلمك استنشاق رائحة القذرين، والقتلة، والمؤامرات عن بعد، لكنه لا يبعدك
عن الأحلام بحياة نظيفة، تلك إحدى أفضليات حياة الباشا السابقة.

منذ هلال مضى.

صدرت الإرادة السلطانية إلى الباشا عبد الله البوشناقى في التوجه والياً على بغداد، التي دفع نصف ثروته للحصول على ولايتها، فسراً بذلك سروراً عظيماً، فقد حقق حتماً قديماً طالما أرّقه، وراوده في لحظات صفوه، أخيراً بغداد!!!... بغداد الرشيد والبرامكة وألف ليلة وليلة، والزغار والعيّاق، بغداد اللصوص النبلاء، علي بابا والدليلة المحتالة، وعلي الزبيق.

وبعد أن قام الباشا بتصفية أموره في ولايته، توجه إلى الولاية الجديدة، ومناه أن يصل، وقد أعدّ موكباً يليق بمكانة ولايته وحلمه العاشق. وكان هرون الرشيد، يعود من غزاة ظافرة، أو حج، مما أوغر صدور الأعداء والأصدقاء عليه، فتوالت المراسلات إلى الأستانة، وطار حمام زاجل كثير إلى قصورها، وأصبح الرجل حديث الولايات وموضع حسد باشواتها.

وبعد مسيرة أيام.

جاء الأمر بعزل الباشا عن بغداد بحجة أن المماليك، نصبوا من أنفسهم والياً جديداً عليها هو المدعو علي بك، والأستانة لا تريد أن تخلق فتنة، لا يحمد عقباها، وقد قرر السلطان توليته إيالة أخرى لم يسمع باسمها من قبل، فعلم أن الأيام القادمة وربما السنوات ستكون شديدة البرودة.

وزيادة في النكاية به.

سربّ التناري القادم رسولاً من الأستانة الخبر بين الحاشية، فانفضّ كثيرون من حوله، ذابوا في حمص، وبقي معه أخلص رجاله ومماليكه، فأكرمهم، ليكونوا عدّة حربه وجلاده في حربه الطويلة ضد خصومه، وحساده، وظل حذره، يلازمه، فقد تعلم ألاّ يثق بأحد سوى خنجره وزنده القوي.

. لا تترك لهم فرصة الوصول إلى عنقك بخناجرهم أيها البوشناقى .
أعلن... ومنذ ذلك اليوم ينتظر فرصة، ليظهر لرجاله، أنه الرجل الذي لا
يقهر .

في الصباح تحمل الراكب باتجاه الإبل المنسية .
في ذلك الحمار الأجرد، الذي اختاره الباشا عن عمد، ليوقف تسلل رجاله
وهربهم في المدن المزدحمة، والأزقة الضيقة أو الحانات، وقد استردَّ الباشا مزاجه
الرائق دون أن يستسلم أو يضعف .
ومنذ بداية الرحلة، كانت عين الباشا تترصد الرجال، وترقب حركاتهم بحذر
غير معلن، فلفت نظره مملوك شاب من مماليكه كثير الصمت والتكؤ، والشروود
والنظر إلى الخلف، يظل في نهاية الراكب، ويتناقل في تنفيذ مهامه .
هذا الشاب ضالتك .

قال الباشا لنفسه، والدروب تتلوى، ثم تندثر، وكلها متشابهة، تقود إلى
فضاء مقفر، وطبيعة قاسية، تلال وشعبان وسهوب، ولا ماء أو بشر أو شجر،
والرجال يمضون، تخبُّ بهم خيولهم، مخلفين وراءهم زوابع صغيرة من العجاج
الهائب، وكأنهم فرسان قدر غامض يمضون إلى مصيرهم .
هذه البراري الموحشة، تورث الجنون .

قال حرس شاب لآخر، فضحك وحصانه يرجه، ويندفع به، ثم صاح:
. اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم .
. العالم بلا نساء مقيرة .

ولكز حصانه، فتقدم إلى الأمام، حتى بات قريباً من الباشا، فشدَّ عنان
الحصان، فقصر من عدوه، ليحافظ على المسافة بينه وبين الباشا، ووسط الغبار
المثار كان الشيخ المجذوب في عربة المؤن مع زوج الماعز الشامى، يرتل
أدعيته وأناشيده الصوفيّة باستغراق، وقد أغمض عينيه باسترسال وشوق، وكان
هذا العالم لا يعني له أكثر من هباء .

. لا تغفل عن الفتى .

قال الباشا... ولأنَّ للصحراء عاداتها، هبت زوبعة من العجاج الخانق فجأة، فأظلمت الدنيا، فاضطرب الراكب، واختببط، وحرار الرجال فيما يفعلون، فالتراب وعويل الريح، وخشخشة الأوراق الجافة، كل ذلك خلق حالة من الفوضى .
. اللعنة... .

دمدم الشيخ المجذوب خائفاً على زوج الماعز الشامي.. ثم أتبع:
. بحق اسمك، أسالك كشف العمّة .

وسرعان ما انكشفت الزوبعة، فتنفس الرجال الصعداء، وبدؤوا في تفقد ما حولهم، فلم تكن هناك خسائر تذكر، أمّا الباشا، فقد أدار بصره، يستطلع الوجوه، فلم يجد المملوك الشاب.. فصاح:
. لقد فعلها الثعلب الصغير .

ثم خاطب كبير حرسه، وقائد عسكره:
. أين أوقطاي يا قره يوسف؟!..

. مولاي..

. أدركه.. فلن يكون قد ابتعد كثيراً .

وانطلق قره يوسف مع فارسين آخرين في إثر المملوك الشاب، بينما وقف ا لراكب للراحة والصلاة .

. لا يفعل ما فعله أوقطاي إلا عاشق أو مجنون .

قال اسماعيل الخازن لخدام الباشا العجوز... فردّ الرجل باستنكار:

. أكان لا بدّ من دم؟! .

. تلك طبيعة الذئب الأغير .

ولم يمض وقت طويل، حتى عاد الفرسان بالشباب مكتوفاً، ثم وقفوا أمام الباشا، الذي اقترب منهم، وقد تركزت عليه عيون الراكب بكامله، وبسرعة خاطفة، استل سيفه، فبرق في ضوء الشمس بشكل خاطف، ثم أطاح بالرأس،

فاندفعت نافورة من الدم، تعمّد أرض الحماد العطشى، بينما تدحرج الرأس بعيداً،
أعقبه سقوط الجثة عن ظهر الحصان.

حينذاك، خفقت القلوب، وارتعشت الأجساد، ولم يصمد إلا قلة من المجريين،
الذين عايشوا الباشا في حروبه وغزواته، وقد أعلن اسماعيل الخازن التوقف،
لتناول الطعام، بأمر من جناب الباشا، وكأنّ الباشا بذلك، يريد استكمال حالة
الرعب بتلك الضربة البارعة.

تحمّل الراكب مرّة أخرى.

وسط صمت خانق، وخوف من رشاش دم وضحيّة جديدة، حلّقت فوقهم
بعض طيور الحبارى، فاستبشروا بهذا الطائر، وتابعوا طريقهم، ثم مرّ بهم سرب
من اللقالق البيضاء.

. بات الماء قريباً.

قال اسماعيل الخازن.. فردّ الخادم العجوز:

. عندنا من الماء ما يكفي.

. الماء يعني وجود الناس، وأنت تعرف ماذا يعني وجود الناس؟

. ما عدت أعرف شيئاً سوى أن هذه القافلة يقودها الشيطان إلى الهاوية أو
إلى الجنون.

. بدأت تحزّف يا رجل؟

. الخرف رأس الحكمة في هذا الحماد.

. إنّنا لله..

وفجأة لاح لهم وسط منبسط من الأرض بويتات من الشعر، تلتطأ تحت
أسوار مهذّمة، تحيط بأطلال مدينة، كانت يوماً ما مأهولة.

. الرصافة؟!!

صاح قره يوسف بابتهاج، فسأله الباشا:

. وكيف عرفت؟

. وهل من عمارة سواها في هذا الحماد يا مولاي؟!..

. وهؤلاء البدو؟

- أناس بسطاء طحتهم الحروب والفتن، فلاذوا بالخلاء فراراً من الحناشل والخورزمية والقبائل القويّة.

وقد صدق كلام قره يوسف، فما إن دنا الركب من المضارب، حتى اختفى معظم السكان في بيوتهم، خائفين من القادمين، فكانت كلابهم أكثر شجاعة، فصالت، وجالت، وهي تنبح بشراسة وقوة.

. من يسكت هذه الكلاب اللعينة؟!..

قال قره يوسف بغضب، فنقدم اثنان من الحرس إلى الأمام، فتراجعت الكلاب الهائجة إلى الخلف، وهي تنثر زوبعة من الغبار، ومن بيت من البيوت الكبيرة خرج جماعة من الرجال يرتدون الملابس البدوية، وقد بدا على أحدهم مخايل الرئاسة والوجاهة، مما يدل على أنه سيّد القوم، تقدم راجلاً من الباشا، مرحباً به، وبرجاله، ثم دعاه إلى ضيافته، والضيف عند البدو مقدّس.

ووسط النيران، وحركة الناس، ورائحة القهوة ودم الذبائح، ورائحة الطعام، وجد الباشا نفسه سعيداً، وذا سلطة على رعيّة وخلق، فغادرته تلك المشاعر السوداء التي رافقته في رحلته الطويلة.

www.alkottob.com

www.alkottob.com

- 2 -
"بنات آوی... تنتظر".

www.alkottob.com

عند الفرات توقف موكب الباشا.

فنظروا جميعاً بانبهار إلى الماء الدافق بهدير صاخب، واسترسال، وأشجار الغرب العملاقة، تتحني كعرائس الجن على النهر، تغسل شعرها في مائه، بينما الطرفاء والنجيل الرابي، والعليق والعاقول، كل ذلك يشكل سداً من الخضرة البائسة الوحشية، فتدبّ السلاحف النهريّة، والطيور، وأفاعي الماء دون أن تُرى، عالم غريب، بكر وغامض، بعد تلك البراري المكشوفة.

. النهر غدار.

نبّه الدليل البدوي، الذي أجرّه الباشا، وهو على ناقته، يبحث عن شيء خاص، ثم تابع بعد قليل:

. حذار من الأسود والضواري، فهي تملأ الدغل.

وتجمع الموكب كتلة واحدة حول الدليل البدوي، فسأل الخادم العجوز:

. من أين نعبر؟! وكيف سيكون حال حيواناتنا!؟

. لا عليك، هناك مضاضة قليلة العمق نعبّر منها حين نعود إلى الجزيرة في

الشتاء، وسأدلكم عليها.

. متأكد من وجودها؟

.....

لم يردّ البدوي على السؤال، بل استدار بناقته، وأشار لهم:

. اتبعوني.

فتبعه الموكب دون اعتراض.

وقادهم الدليل البدوي إلى المخاضة، فعبروا من هناك إلى الضفة الأخرى من غير صعوبة تذكر، ولكنهم عانوا من الإبل، فهي تخاف الماء، ويعروها الذعر حين تدنو منه، ذعر غامض، وغير مبرر، فيضطرون إلى ضربها، ودفعها إلى الأمام. ولم يكُ الشيخ المجذوب خائفاً على شيء، قدر خوفه على زوج الماعز الشامي.

. لقد هَوّن علينا الدليل البدوي الأمر، لولاه لكانت خسائرنا أكبر.

قال قره يوسف لإسماعيل الخازن. وهما يدفعان أمامهما الحيوانات والأحمال على ظهورها.

وعند بوابة البلدة الغافية على حجر وخراب، توقفوا، فترجل الباشا عن جواده المطهّم، ولم يكن في استقباله طبول تدق، أو أبواق تنفخ، ولا خلق يصطفون مبهورين بموكب الوالي الجديد، كل ما هنالك صمت، وسور أثري باذخ من الطابوق الأحمر والتراب، وحامت حوله طيور الشقراق، تثرى أجنحتها المكسورة، وهي تتجه إلى الفرات، مخلقة شوك البلاء والحَمِيض خلفها.

. لقد انتهت مهمتك أيها البدوي.

خاطب الباشا الدليل الواقف إلى جانبه، ثم ألقى إليه بكيس النقود.. وتابع:
. وهذا أجرك.. إنك تستحقه.

واستدار الرجل بهدوء... ثم أطلق لراحته العنان باتجاه مضاربه في بادية الشام. وهو مسرور بالصفقة والمال.

تقدم الباشا ومن خلفه حاشيته.

وقد راعه المصير الغامض الذي ينتظره في هذا الجحيم الحجري، كما راعه الحال الذي آل إليه، وقبل به على مضض ليس من طبعه، ولا جبل عليه، وكأنه منوم تنويماً مغناطيسياً.

وفي فضاء البوابة الهائلة، وعلى مبعدة قليلة من المدخل، انتصب برج مستدير، تهدّم معظمه، لكنه ما زال قائماً بانتظار الحرس القادم، والقوافل العائدة من المدن البعيدة، محمّلة بالحريير والتوابل.

. يا حيّ... أنت الحيّ.

صاح الشيخ المجذوب، وهو يتقدم بجرأة رافعاً يديه في الفراغ، يردّد تعازيمه. ورقاه، ليترد كل شر، ومن خلفه زوج الماعز الشامي، فانتهب الحمام في الطوق، وجراء الذؤبان السائبة، وضبحت بناء أوى.
. يا لطيف... أنت اللطيف... فطفك.

نده الشيخ بصوت حار، وعبر الموكب الحاشد، حيث السور الأثري يحضن خرائب المدينة، ولا شيء سوى الخرائب والدمن والشجيرات الرعوية، فاكتشف الباشا لأول مرة في حياته سطوة الهباء، وهيمنة اليباب، وروح المكان الوحشي، هنا لا قيمة لأحد، ولا مكان للفرح أو العزاء، حجر وتراب، كائنات سائبة في المغاور والبيوت الخالية، وقد عزّس الهالوك والكعوب على فراش الأرض.
. أيعقل ذلك!؟

وبحركة لا شعورية دسّ الباشا أصابعه في فرو "القرصق" الذي يرتديه، فغرقت في النعومة الوثيرة، فاسترد الأمان لولا عودة طيور الشقراق، تطلق صيحاتها النائحة، فاندفع الشيخ المجذوب، يرتل أناشيده الصوفية، بصوت أجش ومؤثر، وكأنه يسير في جنازة الشيطان.

كعادته لم ينم الباشا.

كان متوقفاً، ما راود النعاس معاقد أجفانه، فقد حاصرته الصور والأشباح، والدماء التي سفكها، والرؤوس التي جزّها، إنه مهّدّ بعدو سري، لم يألفه من قبل، سلاحه الصمت، ومملكته الخراب، فتذكر حوار القاهرة وشوارع دمشق، وقصور الأستانة، وآخر زيارة لمس فيها يد مولانا السلطان بشفتيه، كانت بضّة وطرية كبطن عذراء مدللة، تفوح منها رائحة العطر والدم والذهب، فالتاث وتعثر في خطواته، وهو ينسحب في أروقة القصر وردّهاته، والدليل يقوده إلى جناحه الخاص في دار الضيافة العامرة، وهو يتوقع خنجراً ينتظره في أي منعطف، فسلحه ليس معه، وأعداؤه كثر في كل مكان، أعداء خطرون، ومرهوبو الجانب.

وفي تلك الليلة سهر الباشا، رأى البوسفور والسفن وأضواء القصور، ولم يصدق قدوم الفجر، فلبس ثيابه على عجل، ثم انسل خارجاً، وحين استردّ سلاحه، عاد إلى فواده الأمن والقوة.

وهنا لن يذكره أحد.

بل يكونون قد نسوه الآن، فمن أرسله إلى هنا، كان يريد الخلاص منه، وتدميره بطريقة شيطانية، لقد تم دفنه حياً في إيالة الخراب هذه، وسط موكب من بنات آوى، تشيعه، وتطلق عواها في أثره.

لقد سلبه عدوه الغامض نعيم الولايات العامرة، وأحلامه، وتركه هنا، حيث يتساوى مع أحقر خادم في الحاشية، ولا فرق بين الذهب والتراب، بين الحرير والشوك، بين الموت والحياة، بين العقل والجنون.

وفي الصباح خرج الباشا من الصيوان.

كانت آثار السهر والأرق بادية على وجهه بوضوح، فواجه السور الباذخ وأكوام الحجارة والتراب، وخيام الحاشية المتناثرة، والأرض الغليظة، والصمت الثقيل الجاثم على المكان.

تقدم الخادم بالطست والإبريق، فانحنى الباشا، يغسل يديه ووجهه، فانتعش قليلاً، فهو ما زال حياً، وقادراً على الاستمرار، وهذا يكفيه الآن.

. أية أوامر.. يا مولاي؟

. القهوة جاهزة؟

. نعم.. يا مولاي.

. حسن..

. أين يجب أن يشربها مولاي؟!

. في الداخل.

كان الباشا يكره أن يظهر أمام حاشيته بمظهر الإنسان العادي، أو الضعيف، أو المهزوم، فسمعتة الأسطورية، وقسوته الوحشية يجب أن يحافظ عليهما أينما حلّ، فهما درعه الحصين الآن.

. قهوتك يا مولاي.

قال الخادم، وهو يقدم القهوة للباشا، فتناول الفنجان الذهبي بأصابعه الغليظة من الصينية، وبعد الرشفة الأولى، رفع عينيه اللتين لم تفارقهما تلك النظرة الذئبية الماكرة، والمتعطشة أبدأً إلى سفك الدماء.

. هل يرغب مولاي في تناول الإفطار؟

. لست جائعاً... أماننا عمل كثير.

. كما يريد مولاي.

وأمر الباشا بعد الفنجان الأول:

. النرجيلة.

. أمر مولاي.

. ثم ادع لي إسماعيل والشيخ وقره يوسف.

. أمر مولاي.

وبعد إعداد النرجيلة، كان الباشا قد لبس ثيابه الرسمية، وجلس على الكرسي بانتظار قدوم رجاله لعقد الاجتماع المرتقب.

يجلس الباشا في صدر المكان.

مهيباً بثيابه الرسمية ونياشينه، وخنجره اليميني المعقوف، ولحيته الحمراء، يدخل بنهم ولدّة، ويستعرض وجوه رجاله، وحركاتهم، وهم يحتسون القهوة، ويصغون بانتباه إلى تعليماته.

. الرجال بلا عمل كالسمك بلا ماء، سرعان ما يفسدون، ويتعفنون، فيجب أن

نجد لهم عملاً... أليس كذلك يا قره يوسف؟

وجه خطابه إلى قره يوسف.. فردّ بإذعان:

. ما يراه مولاي هو عين الصواب.

. استطلاع المكان ضروري... جد لرجالك مكاناً مناسباً للمخفر، ولا تنس أن

تضع عند النهر جماعة للمراقبة.

. أمر مولاي...

. وأنت يا إسماعيل... لست بحاجة لمن يشرح لك مهمتك.

. سيكون مولاي راضياً.

. حسن...

قالها بصوت هامس... ثم توجه بخطابه إلى الشيخ المجذوب:

. وماذا لدى شيخنا؟!

. كل ما يسر مولانا... ويبعد عنه الكدر وضيق الصدر.

. إذن ليبدأ كل منكم عمله.

. أمر مولاي...

وخرج الرجال من الصيوان متجهين إلى المعسكر بهمة وروح عاليتين، وكان أفراد الحاشية بانتظار الأوامر.

أسابيع مرّت هكذا مثل سحابة غائمة.

تعطي للأشكال ظلالاً غامضة، وللأرواح فرصة للنزهة في الخراب اللائق بها، والباشا محاصر في الصيوان، يدخن، ويرسم خططه، ويبالغ في التدقيق، حتى لا تفوته فائتة، أو يسهو عن صغيرة من الصغائر.

. مولاي... المخفر جاهز... والمفرزة على النهر بدأت عملها. فهل من أوامر

جديدة.

أعلن قره يوسف... فهزّ الباشا رأسه وتمتم:

. حسن.. كثّف المراقبة.

. كما يحبّ مولاي.

وانسحب بهدوء، وقد لاحت على شفّتي الباشا شبح ابتسامة، سرعان ما

انطفأت حين دخل إسماعيل الخازن، ليقدم تقريره.

المخفر... سرت اللفظة في الأذان.

فأعطى مدلولها معنى الهيبة والسلطة، فالخيمة التي نصبت تحت برج هائل من التراب والفخار المشوي في نهاية السور الغربية، أرادها الباشا أن تكون البداية، في مسرحية العبث التي يلعبها في هذا الخراب القاسي. أمّا المفرزة التي أوكل إليها مراقبة حركة النهر، فأمرها أهون، فقد وجد الحراس تسلية في صيد السمك والإوز وطيور الصعو والحمام البري، ورغم عيون الضواري التي تطلّ عليهم في الليل، وحركة الخنازير البرية، فقد وجدوا أنفسهم أكثر أمناً وراحة في البعد عن الباشا السفاح والخراب الصامت صمت الموت.

. أتطول الحال؟

سأل حرسى شاب زميله الكهل فأجاب:

. ربك أعلم.

. هذه ليست ولاية.. إنها فخ للطرائد والموت الصامت.

. إنها بالنسبة لي استراحة...

. وهذه العزلة بعيداً عن البشر، والمدن، والأسواق... ماذا تسميها!؟

. العزلة إمّا أن تصنع نبياً أو مجنوناً لا ثالث لهما.

. مضى عهد الأنبياء.

. لكن الحكمة باقية أيها الأرعن.

. تمتع بالحكمة كما تشاء.

قال بنزق وهو يراقب النهر يجري أمامه باتجاه الشرق، مرحباً وعجولاً، غير عابئ بما حوله من كائنات.

. هؤلاء الشبان، أطوارهم غريبة، يقتلون ويغتصبون وينهبون بدم بارد، ويخاف أحدهم من النوم وحده في الخيمة.

قال الحرسى الكردي الكهل، ثم استدار عائداً إلى الخيمة، يحلم بلحظات، يفيء فيها إلى روحه التي رهنها زماناً للشيطان، وهو يخوض حروبه الطويلة في الولايات المكتظة بالبشر والقصور والروائح الثقيلة، والزمن النائم في الحجارة والأبواب، وقد شهد من الفظائع ما يشيب له الولدان، وأشنعها ما ارتكبها مولاها، فلقد صهر بعض خصومه في الكلس الحي، وبعضهم الآخر صلبه على الأسوار أو سلخ جلده، أو أقعده على الخازوق، أو سمره من أذنيه بمسامير إلى الحيطان ليموت جوعاً وعطشاً.

. اللهم أعني على هذا الزمن الرديء.

قال الرجل، وكأنه يصلي، وقد جاءت إليه هذه المرة "دريند" مدينته، فأيقظت صفحات كانت مطوية داخله، فسألها:

. ماذا جئت تريدين؟

. أريد ابني؟ ابني الذي ضاع منذ أربعين عاماً.

. ابنك مات... مات.

وغطى رأسه تحت الوسادة وسط تشيخ حار...

مظلة من عطر فاغم، انفتحت مثل حبة فطر عملاقة.

أطلقها الخادم العجوز في الصيوان، فاندغمت بالأجواء الأخرى، معبرة عن أناقة المكان ورياشه الفاخرة التي يعنى بها على الدوام "نوبار" بعشوق ومودة، فالأشياء تعني له الكثير، وبرغم غطرسة الباشا المتعالية، وفظاظته الفجة، تظل العلاقة بينه وبين ملكياته حميمة جداً، وقد فطن نوبار إلى انصراف صاحبه عن السماع، مما يعنى اهتمامه بأمر أكثر أهمية وإلحاحاً، فترك الغلام والجارية يستريحان.

. أحضر لك القهوة والنرجيلة إلى هنا... يا مولاي؟

سأل الخادم العجوز... فأجابه الباشا:

. سنشربها هذه المرة أعلى التل.

واستدار مشيراً إلى التل القريب... وتابع:

. ما رأيك نوبار؟!

. كما يشاء مولاي.

. سأسبقك مع الشيخ المجذوب.

ولاحظ الخادم أنّ الباشا يناديه باسمه الأول لأول مرة منذ زمن بعيد، حين جاء به من أحد مطاعم اسطنبول، ليشرّف على خدمته، ويقوم بشؤونه من طعام وشراب، فهو حذر وشكّاك لا يخشى عدواً قدر خشيته من السمّ، وهو السلاح المفضل عند سادة هذا الزمن القساة، وباشاواته العتاة.

. ما علينا...

هزّ رأسه، وراقب الباشا، يصعد تلاً عالياً، ومن خلفه الشيخ المجذوب، وقد فاحت رائحة البن والهال والتبغ، فعادت إلى خاطره صور من حدائق القصور التي حلّ بها مولاه من قبل في عكا وطرابلس وبيروت وأنطاكية، حيث يفوح عبق النسرين والفلّ، والجوري والثراء العامر، وأنفاس الحسان، عالم من الورود والذهب والرخام والأضواء الغامرة في القاعات المذهبة الفسيحة.

وهاهو مولاه اليوم، يغسل يديه في العراء كأبيّ فلاح قروي فقير، ويصعد التل مثل أرنون جبلي.

. يا له عالماً!!

ردّد بصوت خافت، ثم أردف وأصابه تعالج التبغ المعجون:

. إرادة الرّب... يا أم الرّب.

. ولم تتوقف أصابعه عن العمل.

وقف الباشا على قمة التل لأول مرة.

كان يلهث، وخلفه الشيخ المجذوب، يجرّ قدميه، فرأى المخيم بكامله في السهل، وهو الجزء الوحيد الحي في ذلك الخراب، وحين استدار، شاهد زرقة السماء الناهضة، وأسراب العصافير، والغيوم العابرة.

. سبحان الدائم مَنْ له الدوام.

رئّل الشيخ المجذوب، ثم اقتعد الأرض، وهو ينهت كحصان عجوز، خانه الوقت والمسافات الغادرة، وكل ما حوله من فضاءات، يشي بالخوف من القادم.

وجاء نوبار بالقهوة والنرجيلة، ومن خلفه الخدم بالبساط والوسائد، فألقى الباشا بثقله، يستقبل فنجانه الأول، وقرقرة الماء، بينما انصرف الشيخ إلى سبخته، يبيثها أشواق أصابعه، وقد ربطت القهوة بين الاثنين.

. مولاي...

هتف الشيخ بجراءة لم يعهدها من قبل.

. نعم.

ردّ الباشا بآلية... وسط دخان كثيف، وكأنه يخاطب خيالاً.

. من أحبه الله ابتلاه.

. حسن.

. لا بدّ من إشارة يا مولاي.

. لا بدّ.

. يقول القائل.

. وماذا يقول؟

. يقول: إذا درّت نياقك فاحتلبها

فلست تدري لمن يكون الفصيل؟!!

. يكون لي، والنياق لي والزمان لي.

ومضى الباشا يدخن، ويحسو قهوته، ويزين الأمور بميزان من الذهب.

وقف الشيخ المجذوب.

ثم نظر إلى الجانب الآخر، فرأى كما يرى النائم قصراً، يشمخ وكأنه قلعة صغيرة من الطابوق الأحمر والجصّ، فصاح:

.مولاي...

. ما بك يا شيخ؟!

. هل ترى ما أرى؟!

. وماذا ترى؟!

. ليقف مولاي.

ووقف الباشا، وحين نظر إلى الجهة التي أشار إليها الشيخ صعق، ثم انحدر مسرعين وكأن الشيطان يقودهما إلى فخ من أفخاخه، وأمام البناء توقف الرجلان ذاهلين، وأمامهما حديقة القصر، يعرّش فيها العشب والهالك والشوك، أما البناء فقد ظل صامداً في وجه العوادي.

. مولاي... هانت الصعاب.

. أرجو ذلك.

. سيكون قصراً وسرايا.

. سيكون.

وطاف الرجلان في الردهات، والأروقة والغرف، والقاعات الوسيعة، وحتى بئر الماء وجداه، لكن الإيوان الباذخ، وأمامه بركة مثمّنة من المرمر غطاها الغبار، كانا أشد ما بعث السرور في نفس الباشا.

. هنا سنكون مسراتك.

قال الباشا وقد سحرته النوافذ والأبواب والعقود الحجرية.. ثم تابع:

. لا أظنه حليماً.

. إنه حقيقي يا مولاي.

وبدأ الباشا، يتلمس الحجارة، والأعشاب، وينثر التراب، والشيخ يقف أمام
سطوة البناء الهائل.

واستدار الرجلان عائدين إلى أعلى التلّ، وقد حان وقت الغداء، حيث كان
الخادم ينتظر، وهو لا يفارق المائدة، قبل جلوس الباشا.

.ماذا أعددت لنا اليوم يا نوبار؟.

.كل ما يشتهي مولاي.

.لقد بدأنا نفقد لذّة الطعام، لكن أيام السرور قادمة.

.ليجعل الله كل أيام مولاي سروراً.

وجلس الباشا، يتصدر مائدة الطعام التي يعرف خادمه كيف يحولها إلى
مأدبة عامرة، لا تقاوم.

www.alkottob.com

-3-

نياشين الهباء

- 42 -

www.alkottob.com

-إعلان أم إسرار؟-

دمدم الشيخ المجذوب، وهو يأوي إلى خيمته، متصيِّداً فراشات الليل، تأوي إلى قنديله الضاوي والغاوي، في ساحة الجامع العتيق الواسعة، الجامع الذي لم يبق منه سوى مئذنة حجرية، وقناطر شامخة وأسوار مهدمة متهالكة، وجذب إليه عنزته الأثيرة، تلمس ضرئتها، فأشرق وجهه العريض، ودارت تحت أضراسه لقمة الحلوى، التي أطعمها له درويش عابر في أحد أرقة حلب القديمة، مردداً:

-ممالك أم ملوك!؟!

فقلب كيانه، وأسلمه إلى الحيرة ووسواس الأسئلة المؤجلة، فأصابه الدوار وحمى البحث عن الحقيقة.

-حلى أم بلوى!؟!

أعلن وهو يشهر أشواكه مثل قنفذ محاصر بين أفعى وبيوض قطاة فرّت، فذكر حلب، وأسواق حلب، ونسوان حلب، والسماع في حلب، مدينة اللذة والجنون والطرب، لقد جاءها مفرداً، وقاتلاً، فأغرته، أعطته فرصة للخفاء والتحوّل، لزم المساجد في البداية، فرجمته الكوابيس بحجارة الأرق، لم يكن ينام، فالدّم كان يطارده إن نام، ويحاصره إن كان يقظاً، فانتقل إلى الزوايا والتكايا، فلم يتحصّل على أكثر من الطعام والخدمة، فترك كل ذلك، عمل في السقاية، يحمل قربة من الجلد على ظهره، فكاد أن يقتله العطش، حينها رابط عند نهر قويق، يصطاد السمك منه ليقنات، وهناك ظهر له الدرويش مرة أخرى.

-الطريق مسدود إلى أهل الطريقة.

قال لها، فذعر، ثم تمالك جأشه وسأل:

-إلى أين إذن يا مولاي!؟!

- إلى البداية.. والبداية من درجة العيارين.
- لا أفهم..
- تبدأ من القاع، وأنت العارف المجرب لمسالكه.
- ماذا تعني؟!
- الحقيقة لا تحتمل الحمقى..
- مولاي..
- يداك ملطختان وفمك أتم، فلا تكثر من السؤال.
- رحماك.. دلني على الطريق، فلقد أحرقت هذه الحلوى جوفي.
- بدأت جنائياتك في الحان.. أتذكر ليلة الحان؟!
- وهل تنسى؟! قتلت صاحب الحان وزنيت بامرأته وابنته، وسرقت ماله
وخمرته، ثم أحرقت ما تبقى، ورحلت، وها أنا ضائع، ضال.
- إذن.. تعود إليه. ولا تأخذ معك منه سوى السماع.
- ولم السماع يا مولاي؟!
- هو الفراشة التي تأخذك إلى العرش رقصاً.
- الآن.. فهمت.
وتوقف الحوار لحظة، كان الدرويش فيها، يراقب جريان النهر، وحركة
الطير، ثم قال:
- لكل رجل صالح حيوانه المفضل، ولك الماعز الشامي.
- سيكون.
- بدأت السعي، فامض، فكل مياه الدنيا لن تطهرك.
واختفى الدرويش، فلبس ثيابه، ثم توجه إلى أقرب حان، فالتقاه صاحبه
بالترحاب، فرأى اللصوص والسكرارى والآثمين - كما أوصاه شيخه - بعين العاشق
لا بعين الخاطيء.. فصاح بعد الكأس الثالثة:
- يا شادي الألحان هات واسمعنا..

فاندفع صوت شاب يردد اللحن بعذوبة فائقة، فيتحول الحان إلى سفينة
سكرى، تضرب أشرعتها في بحر مجنون، والزبائن يردون وراءه، وقد تقجّر الفرح
من قلوبهم، كالماء من الصخر.

وبعد الكأس الرابعة صاح:

-أيها الساقى إليك المشنكى..

فأسرع الساقى يملأ الكؤوس من جديد، حتى أترعت، وسال فيض منها على
الطاولات الخشبية العتيقة، وغامت الأضواء.

وبعد الكأس السابعة صاح وهو يتمايل نشوان:

-صلّوا عليّ.. يا سكارى.

وقام السكارى، يرقصون حوله، وهم يحملون كؤوسهم المترعة، يرشفون منها
جرعات كبيرة، فقال صاحب الحان العجوز، والمنظر يتوالى أمامه:

-وراء صاحبنا خير.

وآخر الليل قاد سهف إلى خان اليهودي، وهناك تركه، ورحل، و الخان
مدرسة لتعليم القيان والجواري الرقص والضرب على الآلات والغناء، وقد تلقاه
خادم شاب، رحب به وكأنه يعرفه منذ زمن طويل:

-كنا بانتظارك يا مولانا..

-ومن أنتم؟!

-نحن.. نحن.. لا يهم.

وتحوّل سهف أذناً تسمع وترى، عاشر الأصوات المدندنة، والخصور
المرتعشة، والقامات الهيفاء، فردد مع الجوقة، وصفق للطرب، يدخل أعصابه
ودمه كالبرد، وكان يشاهد في القاعات الفسيحة أرواحاً، تتجول، ومشاعل تقضح
ليل الردهات، وهمسات تومئ، ولا تفصح.

-خاطئ أم تائب؟!

سأله صاحب الخان حذراً.. فأجابه:

-مبتلى بالعشق.

-ودواء العشق!؟-

-يبدأ بالناي.. فالناي قصب سرق من أمه، كما سرق العاشق من محبوبته.

-هذا كلام جديد.

-وقديم نسيه الناس فذكرناهم به.

-أنت ضيف.. والضيف مدلل.

ومضى الرجل في الممر بخفة، وبقي سيف وظل ابتسامة غامضة، ترسم على شفثيه الغليظتين، ثم تابع طريقه إلى مأواه.

ولدَّ له المقام في الخان، لولا أن التقى الباشا هناك، عاينه قبل أن يقترب منه، وقد شعر باختلافه عن الناس، كل الناس: البنيان المتين، والجبهة العالية، واللحية الحمراء، والعينان الحادتان، كل ذلك نمَّ عن رجل، ولد ليكون أسطورة، فتقدم منه، يرحب به، ثم اختار له غلامه إياز وجاريتَه جَلنار، وهو الرجل الذي يعرف كل أسرار الخان.

-سترحل معي.

قال له الباشا بلهجة حاسمة وأمرة.. فأجابه:

-وإذا لم أذهب!؟-

-ستذهب.. لأنك لن تجد سيداً مثلي.

ودخل في خدمة الباشا، مودعاً الخان وسكانه، فضمه إلى حاشيته، يستمع إلى حكاياته ونصائحه التي لا يؤمن بها، وأناشيدِه الروحية التي ترمم ما خسر في حروبه الطويلة من طاقات.

حضر الشيخ المجذوب أنثى الماعز الشامى.

ثم جلس في الخيمة، كان القمر واطناً، يكاد يدخل، ويشاركه في فرحته التي لا تحدّ، فلقد أن الأوان لاستقبال نتاج ما انتظره طويلاً، وقد فاحت من حوله رائحة الأنثى المنجبة، فردد:

-مولاي.. حان الوقت..-

وحيث أغمض عينيه، عبر في باله قطيع من الجفاري يتقاذز حوله في مرج
من الخضرة والماء، واللقاق تأتي من بعيد، لتقف في الماء بسيفانها الطويلة،
ومناقيرها، وكأنها نياشين للهباء.

الزمن يدبّ كحصان هرم، بطيناً وصائتاً.

والرجال متعبون، الخواء ينخر أرواحهم، وقلوبهم فارغة، لا حركة، ولا رعشة، فلما شاع اكتشاف القصر بينهم، دبّ سرور فاتر، وشعور بالبهجة في نفوسهم، يدفع عنهم العفن الذي ران عليهم، ويعيد إليهم بعض الثقة المفقودة، ففارقتهم الحركات الخرقاء، والتصرفات الحمقاء، فهذا القصر مظهر من مظاهر السلطة، وهو حقيقي وقائم فعلاً، فلا بدّ من أناس.

-لعل ليالي القصر القادمة تعيد إليّ مولاي.

قالت جلنار، وهي مرمية مهملّة في الخيمة.

-نسيّت صوتي.

دمدم إياز الغلام، وعيناه عالقتان بالفراغ الممتد.

وهناك عند النهر، كان الوضع مختلفاً، فالحرسي الكهل شيركو، منذ أن وصل أعلن الحرب على هذا العبت، والصمت، فهو خبير، تدريب، ومارس ذلك في معاركه، فالفارس إذا لم تشغله؛ وتملاً فراغه، فسد كقطعة الجبن، وقد جمع عناصره منذ الصباح الباكر، وخطب فيهم قائلاً:

-اثتان لا يصلحان إذا فسد يا أولادي، الماء والإنسان، فإذا ركد الماء فسد. وإذا حمل الإنسان فسد، فليس أماناً سوى الحركة، فالحركة ولود والصمت عاقر، من هنا سيكون شعارنا: مزيداً من النشاط...

ثم ختم الرجل كلامه الطويل ونصائحه:

-سنبداً بناء سبياط واسع وحظيرة، فالخيمة لا تطاق.

وعلى الفور بدأ العمل، فاستطلع تلة مشرفة على النهر، نظفها العناصر من الحجارة والعشب والشجيرات، ومهدوا أرضها بهمة عالية، وهم يغنون، ويضجون بالصخب والضحك.

- احرصوا على أن تكون جذوع الأشجار مستقيمة.

نبه شيركو الكهل، والرجال منهمكون في أعمالهم، عرو أجسادهم حتى الوسط، وفاحت رائحة العرق والحياة منهم.

- سيكون قصراً ملكياً.. يا سيدي.

صاح حرسى شاب.. فأجابه شيركو:

- سنحوّل المكان إلى جنة.. ونبنيه بالحجارة والطين.

وبعد أسبوع كان العمل قد أنجز، فوقف شيركو يعاين الأرض النظيفة، والمساحة والواسعة، والإطلالة الرائعة على النهر المتدفق أمامه، وفجأة تابع:

- يبدو أننا سنستقبل ضيوفاً اليوم.

كان ثمة ثلاث نقاط سوداء تتحرك على صفحة النهر، تتجه إلى الشرق، بدت لناظرية، فاستعد عناصر المفرزة، وهم يركزون أنظارهم، وقلوبهم تخفق بلذة وتشوّف، والصمت يتكسر تحت أقدامهم كغطاء رقيق من الجليد، ليترك للزمن المتوقع أن يجري، يتدفق، وللحياة أن تتحرك بعد كل ذلك الركود، وحين أصبحت النقاط واضحة.

- يبدو أنها سفن للنقل.

صاح أحد الحرس.. ثم عقّب:

- بالتأكيد جاءت من البيرة في طريقها إلى عانة.

- وكيف عرفت؟

سأل شيركو الشاب.. فأجاب:

- لقد عملت مع هؤلاء السفانة في صباي.

- وماذا تحمل عادة؟؟

- الزبيب والتين الجاف والمشمش والبرغل والزيت والبسطيق والصابون.

-تجارة!!

-نعم.. تتبع بضائعها للقرى الواقعة على الشاطئ، وحين تصل عانة، يفك السفانة هناك أخشاب سفنهم، ويبيعونها إلى تجار الخشب والنجارين، ثم يعودون عن طريق البر، على البغال والحمير.

-حسن.. استعدوا لاستقبالهم يا شباب.

وظفقت السفن تقترب من الموقع، والعناصر ما زالوا في مكانهم بانتظار وصول العابرين، وقد سأل أحد الحرس زميله الواقف إلى جانبه:

-أيمكن أن يكون معهم نساء؟

-ولماذا النساء!؟

لا لشيء.. المهم أن نرى وجهاً حسناً.

-أيعقل هذا يا رجل؟

-في أرض الصمت هذه كل شيء معقول، فنحن مجرد أشباح.

-وهذه هي المأساة.

وفي تلك اللحظة أشار شيركو إلى السفن، فدنت من الواقفين بانتظارها على وجل وشوق لرؤية وجوه أناس غرباء، بعد عزلة طويلة، والخوف يمدّ جسوره كالهالك بين الاثنين.

وحين توقفت السفن، نزل من كل سفينة رجل تبدو عليه سيماء السيادة والوجاهة، حتى توقف الرجال الثلاثة أمام شيركو، فسلموا بأدب ودمائة، فتلقاهم الرجل بالترحاب.

-من أين الرجال؟

-تجار من البيرة في طريقنا إلى عانة. سيدي.

أجاب أحدهم.. فتابع شيركو:

-يجب أن يراكم مولاي الوالي.

-الوالي!؟

ردّ الرجال الثلاثة باستغراب.. ثم أردف أحدهم:

-ولكن المكان خراب منذ أجيال.
-اليوم اختلف الوضع، فالمرور من هنا بأمر.
-كما تشاء سيدي.
باستسلام قالوا، وهم يستعدون للقاء الوالي الذي لا يعرفون من أين جاء؟
وكيف أصبح والياً؟

تناوق رئيس المخفر بإمعان.
فبدا له البرج جثة هائلة من التراب والحجر، يتهالك على أضلع مهذمة،
فتتهاقهر مزمن، فاستنامت له، وكأنها آخر ذكريات الممالك البائدة، التي قامت
على هذه الأرض في أزمان غابرة.
-هل يأمر سيدي بشيء؟
سأل الحاجب الموكل بخدمته، فأوعز:
-لا بدّ من السؤال أيها البغل؟!
-هكذا خلقتني الله.
-القهوة والنرجيلة.
-يأمر سيدي.
وأسرع الحاجب لتنفيذ أوامر سيده الصباحية، بينما اندس السائس بعده،
يستأذن في ممارسة عمله:
-هل يأذن سيدي؟!
-بم؟
-البغال عطشى وجائعة.
-هذا شأنك.
-سأخذها إلى المرعى.
-خذها، ولكن احذر أن تفقد إحداها.. يا أبله، وإلا فقدت رأسك.

وانسل السانس كأفعى التبن، خفيفاً، ورشيقاً، وعاشقاً لعمله دون أن يصدر صوتاً:

- إلى جهنم.

قذف رئيس المخفر الشتيمة كالبصقة، فالقهوة قادمة والنرجيلة، وذكريات "يلدز" صاحبتة ذات الوجه القمري، والجسد المفاض، يلدز الليالي الآثمة والأقمار المشعة، وزقاق الورد الفواح، بماء العطر والموت والشهوة وعرق الأفخاذ الناعمة، وجبل الجبن الحار.

- لا بدّ من مخفر حجري، وحظائر، فالقماش لا يصنع مقراً ثابتاً.

جزم الرجل، والأكوام الحجرية من الفخار المشوي، تسترخي عند قدميه، فأناج إلى الفكرة، فقصر الباشا بدئ العمل في إصلاحه وترميمه، فلا بأس أن يكون له مكان ثابت من الطين والحجر.

وجاءت النرجيلة والقهوة، فاستعد لاستقبال آخر لذاته الكبرى بعد الحرب والنساء والذهب.

- سيدي.. الرجال يطلبون مقابلة الباشا.

وتأمل رئيس المخفر الرجال الثلاثة الواقفين أمامه، وهو لا يكاد يصدق، ما يجري أمامه، فنهض واقفاً، فتابع الحرسى كلامه:

-تجار عابرون في سفنهم.

-تجار..؟! ويريدون مقابلة الباشا!؟!

-نعم سيدي.

-تعالوا معي.

وسار الرجل أمامهم مزهواً، تاركاً المخفر وراءه لمعاونه، وكأنه يحمل لسيده الوالي أئمن هدية، يمكن أن ينتظرها في إيالة الخراب.

ولم تكن دهشة الباشا أقل من عناصره، فلقد استقبلهم بسرور بالغ، عبر عنه بابتسامة غامضة، ثم بدأ حديث طويل بينهم.

جاءت البضائع من البيرة.

بضائع أوصى عليها الباشا أصحاب السفن، وجاء معها الصناع المهرة، الذين طلبهم، من نقاشين وبنائين وأصحاب الكار، وقد أشرف الباشا نفسه على إصلاح القصر وتنظيفه، وترميم ما تخرّب منه، فغسلت الأرض بالماء، ودهنت الجدران، وأعاد النقّاشون للرسوم والخطوط واللوحات ألوانها وزهوها، وحياتها، فشعت، وبرزت فأبهجت الناظرين.

كما أعيد للحديقة رونقها، وترتيبها بعد إهمال طويل، وأصلح النجّارون الأبواب والنوافذ ورّمّ العمال الأسوار بالفخار والطابوق، ثم مُدّت الفرش الثمينة من البسط العربية، والطنافس الوثيرة، وتوهجت ألوان السجاد الفارسي تحت أضواء الثريات، فتحول المكان والملحق الذي خصصه الباشا لحاشيته إلى لؤلؤة صافية وسط الخراب، ثم استكمل العمال بناء المخفر وحظائر البغال والبئر.

-المُلك.. قصر وسراي.

ردّد الباشا، وهو يدخن، ويشرب، ويستمتع إلى المغني والجارية في أول احتفال له، والماء يتدفق في البركة المثمّنة، فتجري الحياة في عروقه، خاصة بعد جلسات التدليك في الحمّام الذي افتقده كثيراً.

وساعة أوى إلى مخدعه، هاجمته الذكريات، بعد أن هجر كل ذكرى منذ زمن بعيد، ربما لاشتغاله بحروبه، وربما لأسباب أخرى، لا يريد أن يواجهها، أو يفكر فيها يوماً من الأيام.

ورأى الباشا نفسه شاباً، يفور بالقوة، ذا بنية صلبة صلبة شجر السنديان هناك، في قريته البعيدة، بشعر أحمر، وعينين فاسقتين بلون الزيتون، يندفع كالفهد الصياد على أرض ذلك الوطن النائي، بين كروم العنب وشجر الزيتون، يصطاد

الطيور والسمك، ويكمن للصبيا على ضفاف النهر، ليرى أجسادهم البيضاء، تغرق في الماء الفياض، ولأنه عاشق مدمن للكروم، كان ينام تحت الدوالي، يتلمس الأعناب المتدلّية في النور القمري، فنتحول إلى بيدر من النساء، يغرق فيه عارياً، ليستمع إلى حنينه المسكر، فوجه النشوان، قالت أمه:

- هذا الولد مجنون.

وقال أخوه الأكبر:

- دعيه.. فللشباب حصته.

وقالت زوجة أخيه الأصغر، وكانت صبية جميلة:

- الأرض ستمتص كل هذه القوة.

وفي صباح من صباحات الموسم، لم يتحرك من فراشه، دهمته الحمى فجأة، فتخلف في المنزل، وفي اليوم التالي اشتدت عليه. فخاف على حياته أفراد العائلة، فاضطروا إلى ترك زوج الأخ الصبية للعناية به، فهي من عائلة عرف عنها الاشتغال بطب الأعشاب ومعرفة فوائدها.

- اشرب.

قالت أمرة، وهي تسقيه منقوع أعشاب خاصة، وكان غائباً عن الوعي، فبدأ يشعر بتواصل ضعيف مع العالم، ويدها البيضاء، تمررها على جبهته العالية، وصدرة، المشعر، وتلمس بطنه، ولم يكتشف ما جرى إلا بعد أن استعاد وعيه كاملاً، وعافيته، فلم يحتمل العذاب، فقتلها ورحل.

نام في البساتين الموحشة، والخانات القذرة، وتحت جدران الخرابات، وقذفته القرى والمدن من مكان إلى آخر، فعاشر اللصوص في الموانئ، وقطاع الطرق في الصحراء، حتى وجد طريقه، فاختر مهنة الموت.

- ستكون رجلاً عظيماً يوماً ما، أيها الشاب.

تنبأ له بذلك قاتل مأجور، علمه أسرار المهنة، ودره على استعمال الخنجر، والبلطة. ونصحه قائلاً:

- لا تأمن لغير خنجرك.

ثم دار حوله.. وتابع:

-إياك والنساء.

ومن أزقة حلب وحاراتها وأسواقها إلى مدن الشام واسطنبول والقاهرة وبغداد التي وقع في هواها، فأرادها له ملكاً، وحين أصبح قاب قوسين أو أدنى، خانه الوقت، وانحاز إلى أعدائه.

-مولاي.

جاءه صوت نوبار العجوز، فانتبه من شروده.

-ماذا وراءك؟

سأل وهو يعتدل في جلسته، وقد بدا المكان أمامه جنة وحشية في هذا الخراب، فلقد آخى بين الترف والصمت، بين الجمال والقبح، وبين العزلة والضجيج حتى لا يهزم، فالهزيمة لديه تعني الموت.

قال الخادم وهو ينحني على أذنه:

-البطالة تفسد الرجال.

-فهمت.

-والرجال بلا نساء مشكلة، ديكة تتناقر وتتقاتل بجنون.

-ماذا نفعل برأيك؟

-الحيوانات كثيرة في المنطقة، فلنبدأ رحلات الصيد.

-فكرة رائعة.. أيها العجوز.

وبدأت رحلات الصيد، والمطارات في الأدغال، فعادت إلى عسكره حيويتهم وروحهم المحاربة، وامتلاً القصر، وساحات المعسكر بحفلات الشواء والشراب، وكدس الباشا جلود الغزلان والأسود البابلية، وعلق الرؤوس المحنطة على الجدران، إلى جانب التحف والأسلحة، فعادت إليه روحه القديمة.

-لابد من نساء.

هجس الباشا، وهو يوجه أولى حملات عسكره، للاستطلاع واكتشاف قرى ومضارب سكان إيالته من شوايا وبدو، فتوالت الأخبار بوجود بشر وأناس،

اطمأنوا لوجود العسكر، الذين قاموا بمنع التعدييات، ومطاردة اللصوص وقطاع الطرق، وتأمين الانتقال من مكان إلى آخر، وبدأت خزينة الباشا، تستقبل أموالاً جديدة بعد انقطاع طويل.

-هانت الأمور.

قال إسماعيل الخازن، وهو يستلم الأموال الجديدة، وقال نوبار:

-هذه الأجساد الشابة، لن تروضها سوى المرأة.

وحيث نزل جماعة كبيرة من العجر، عمّت الفرحة العسكر، فتأنقوا، وتعطروا، ومثل طواويس مزهوّة، انطلقوا، يتجولون بين المضارب، فشاع الرقص والغناء والسهر الليلي، والمتع المحرمة، وملأت سماء المكان الضحكات الماجنة، تكسر الصمت الجاثم على الصدور كالكابوس.

الموتى لا يعضون

- 58 -

www.alkottob.com

يمر البدو العابرون في المواسم.

يدفعون كلابهم وقطعانهم وسط زوابع من العجاج والصياح، فيتعكر وجه النهر، ويفر السمك والشبوط النهري، ويشتم شيركو مخلوقات الله المنسية هذه - كما يسميها- لاعتناً نسوتهم النحيلات، المجلات بالسواد، ورائحتهن النفاذة، يمتزج فيها العرق بالخضيرة، معلناً أنهن بالتأكيد ساحرات يحملن خرز المقابر للسيطرة على الرجال.

يمرون فلا يأبه بهم الباشا، ما داموا يدفعون ضريبة المرور، أما إذا رأى عند أحدهم فرساً من سلالة نادرة، فلا يترك وسيلة للحصول عليها، فاجتمع لديه نتيجة ذلك اصطبلاً نفيساً من الخيول العربية الأصيلة، سعد بها، وأعطاهما وقته واهتمامه، ومما زاد في سعادته، السفانة من التجار العابرين من البيرة إلى عانة، يحملون إليه ما يريد من التموين والبضائع، مما أشعره أنه سيد هذا الخراب وأميره وسلطانه.

ويوم يستقبل الشيخ المجذوب ولادات ماعزه الشامي الذي يتكاثر باستمرار، يطير بأجنحة الفرح، ومثل الرعاة الصالحين آخى بين العزلة والعبادة، فكان يجلس وحيداً في البرية، يرقب الماعز والطير والصمت البري يتوج كل ما حوله، والفضاء يمتد أمامه إلى ما لا نهاية، قبة زرقاء صافية من البلور النظيف. مردداً:

-مولاي.. إشارة منك.

ويسترجع صورة الدرويش على نهر قويق.. فيهمس:

-حلوى أم بلوى؟! لقد احترق جوفي.

وفي المساء يتوجه الشيخ إلى باحة الجامع العتيق، وقد حفّ بها أطلال جدران وأسوار حيث يودع هناك ماعزه، وبعد أن يصلي، ينام تحت قناطر الجامع

الحجرية، الذي لا يبعد كثيراً عن قصر الباشا، بغزلانه، وطيور الحجل والحبارى، والشاهين، وزوج الطواويس اللعين، حين رآها.. قال:

- هذا الطير مغرور مثل إبليس.

فتذكر زيارة الحان الأولى، ورقصته الأولى.

وحلّ شتاء.

لا ككل الشتاءات التي عرفها الباشا، بدأ خافتاً خجولاً، يمر بالطوق والنوافذ والوجوه نسيماً شفيفاً، ويظلل الخرائب بعصافير الدوري والصعو والخُصْر، ويمدُّ أصابعه، يشقق جلد الأرض عن خطوط من العشب، يطل برؤوسه الخضراء كوبر سري، فانخدع الباشا به، فأسرف مع حاشيته في الطعام والشراب والسماع والنوم.

- النوم ترجمان الموت.. لو تدرون.

قال الشيخ المجذوب.. وهو يرقب ما يحدث.

ويلدُّ الباشا أحياناً أن يستقبل بعض السفّار والرحالة الأجانب، يقدم لهم الطعام، والمبيت، ووسط الشموع والليل والغناء، يزهو بشارته ورتبه وطرבוشه ولحيته الحمراء، ويطلب إليهم أن يتصرفوا بكل حرية، دون اعتبار للمراسيم والرسوميات، بينما ينصرف إلى نرجيلته وأضواء الثريات والشموع الهادئة، يرقب الوجوه المبهورة بمتعة فائقة.

ولأنه أعلن حربه المقدسة على العزلة والصمت، أفرد جناحاً خاصاً في قصره العامر، فرشاه بالسجاد الثمين والطنافس، وزينه بالمنمنمات التي نقشها أعظم الرسامين الترك، جلبهم من اسطنبول، ثم علق السيوف المذهبة، والخناجر اليمينية، وجلود السباع، ورؤوس الأيائل التي اصطادها، ثم عطره بالبخور وعود الصندل في مجامر مغربية.

قالت أول إنكليزية تدخله، حافية نشوى:

- هذا الجناح تحفة شرقية، يدل على ذوق رفيع.

- هذا إطرء لا أستحقه.

-مولاي.. التواضع قَمَّة الغرور .
وتناولت الطربوش الأحمر، ثم وضعتَه على رأسها، وهي تتابع:
-مولاي الجميل.. لك وجه قرصان تركي.
واتجهت إلى النافذة، ترقب القمر الطفل، يحبو ممعناً في السماء الصافية،
بينما كان الشيخ المجذوب في تلك اللحظة يتهدج وحيداً مع قطيعه الشامي.
-لأول مرّة أعبّر بلداً بلا جامع أو كنيسة.. أين تصلُّون؟!
-الأرض واسعة.
وطوقها بذراعيه، فاستسلمت بسهولة، فقادها إلى فراشه.

ومثل لعنة سوداء غامضة.

بدأ الأمر، حين وجدت جيف كثيرة من البغال في مستنقعات البليخ وعين العروس وعلى شواطئ الفرات، جثث تفسخت، وغطت المنطقة، ومن الحيوان، انتقل الوباء إلى البشر، فقد رمى النهر جثة رجل من السفانة على الضفة، تخلى عنه بعد موته رفاقه، وفرّوا مذعورين، صارخين.
-الطاعون.

دوّت الصرخة في البوادي والوديان والمعسكر، فانتشر الرعب في القلوب، ثم توالت الأخبار من كل الإيالات والمدن، من حلب ودير الزور، والرها والبييرة، إنه الهواء الأسود. أطلق شياطينه، يحصد الناس كالزرع، والموتى يتساقطون.

-مولاي.. ما العمل!؟!

سأل إسماعيل الخازن الشيخ المجذوب.. فأجابه باستسلام:

-العمل عمل ربك.

-من أين جاءنا هذا البلاء!؟!

-جاء.. جاء من حيث جاء.

ويوم سقط أول رجل من الحاشية، وجم جميع الحاضرين، وأخذ صمت حذر، ينسج خيوطه السرية في الصدور والرؤوس، وقد أمر الباشا بحزم:
-احرقوا الجثة.

وساد خوف غريب القصر والمعسكر، وكأنهم بانتظار ذلك الزائر المرعب، وتوالى سقوط البغال والرجال، الشيخ المجذوب والخادم وشيركو، ثم جاء دور الغلام والجارية، ورجال الحرس.

- أهذه هي النهاية؟! -

سأل الباشا نفسه.. ثم أجاب:

- لن يهزمني شيء في الدنيا.

ولم يدب اليأس إلى روحه، فظل واثقاً من النجاة، هجر الشراب والتترف، وزهد في الذهب والمال، ولما لم يبق سواه على قيد الحياة، لبس مرقعة رثة، وطوق عنقه بالحرمل، ودفع أمامه القطيع إلى البرية، لا يحمل معه غير كسرة من الخبز اليابس، وقربة من الماء، وراحة لم يعرفها من قبل.

واليوم.. يتوسط باحة الجامع العتيق قبر.

راجت حوله الأقاويل، وكثرت الشائعات عن كرامات صاحبه، بنى عليه أحد الحاج الأتراك قبة من اللبن والجص، دهنها بالأخضر، فمنهم من يقول:

- إن القبر لأحد التابعين الأبرار.

ومنهم من يقول بإصرار:

- إنه للولي الخضر الأخضر.

ومنهم من يدعي أن القبر خالٍ، ولا أحد فيه، والروايات تتضارب، وتتشعب لكنها لا تجمع على أمر.

أما ما اتفق عليه المعمرون، وأكدته الروايات المتواترة، وملاحظات رؤساء المخفر المتعاقبين ومذكرات الرحالة والسقار، فيقول بأن سكان البلد الحاليين، يتحدرون من سلالة الماعز الشامي.. والله أعلم.

*جملة أخيرة:

"وفي سنة /1175هـ، ولي إيالة "الرقة" سعد الدين باشا العظم الذي عين والياً لبغداد في السنة نفسها بدلاً من والي بغداد، ولكن الأستانة، لم تستطع تنفيذ أمرها بتعيين والياً (كذا) من غير المماليك لأنّ هؤلاء، رشحوا أحد زعمائهم علي بك، فعينه السلطان في ربيع الأول من سنة /1175هـ. على الرقة، وكان الطاعون، فتوفي مطعوناً فيها، ودفن بجامعها الكبير..

تاريخ العياش ص 18-20

شئاء الرقة 2002

www.alkottob.com

- النصُّ الثاني -
ظهورات السيدة الجميلة

www.alkottob.com

*الظهور الأول

شفتق الفجر جرساً من القطن الأبيض.

والحارة النائمة تتلملم، تترك لسكونها أن يتصدع، لتعبرها الروائح والأصوات
وخطوات العابرين، وهم ينطلقون إلى غاياتهم، وكان ثمة سرب من الحمام، يهجر
أعشاشه، ويحجل فوق سطح المنزل، يلتقط حياً من بقايا الأمس.

-يا فتّاح.. يا رزّاق.. يا عليم.

وأعقب الصوت نحنة قوية، ترددت في الزقاق الضيق، وجرى كلب سائب
مذعوراً فأن باب خشبي، انفتح قليلاً، ثم عاودت يد بيضاء، موشومة بالحناء
إغلاقه من جديد خوفاً من اقتحام غير متوقع.

اهتزت شجرة السرو بإجلال خاشع في باحة الحوش، وكان الرجل بثوبه
الواسع يجلس وحيداً، يشرب الشاي بالزنجبيل والقرفة، ويستمع إلى صوت صديقة
الملاية، يتردد بلذاعة، "يا صياد السمك.. صيد لي بلطية..، وهو يرقب يمامة
أنثى، تهرب من ذكرها العاشق إلى عشها في أعلى الشجرة، تياهة. مدلة، كشأنها
وهي تمارس غرائزها الموروثة، بينما لطأ الديك العشاري بعينيه الغاضبتين وعرفه
الأحمر إلى الحائط، مستظلاً بعرائش المجنونة واللبلاب من شمس غير حارقة،
وقد بدت الكائنات أليفة، ومطمئنة، تعوم في هلام غامض دون أن تغرق.

-نون..

هجس الرجل بصوت أجش، وكأنه يقرأ تعويذة سحرية، ثم رشف قليلاً من
الشاي، وهمه الرانس ألا يفقد هذه اللحظة، فللصباح مواكبه المقدسة، وللروح
حريتها في أن تغتسل كما شاءت في أنواره اللاتعة بالأناسيد والأوراد.

-القلب كالعرش، والصدر كالكرسي.. فلا تبالغ في الجنون.

وفجأة..

انبثقت المرأة من الحلم، نافورة من العطر واللون والماء. أو شبطة من طرفاء

الفرات، يمر بها البدو العابرون إلى مضاربهم المتناثرة في بادية الشام، يحملون التين المجفف والزبيب، والرغائب الخامرة، تفوح من أجسادهم رائحة البختري والخضيرة، والعزلة الأبدية التي لا يدرك فضائلها سوى الزاهدين والرعيان.

دورقت كفيها الموشومتين بالشذر الأزرق، وسقت الرجل ماء الرضا في زمن فقدنا فيه الرضا، وحافية، عارية، باسمه وقفت على رؤوس أصابع قدميها، فوسوت شنوف حجلها الذهبية، ثم اشربيت بعنقها الأملود.

قال الرجل:

- هذا العرش لك.

قالت المرأة:

- هذا الكرسي لك.

- والجنة؟

- لأهلها.

وأطلق الرجل فراشاته النهمة، تلم ما زرعت شفتاه بالأمس من بنفسج وليلك مجنون على مرمها الوردية، فازدهى الشحوب، وفاح عطر النارج والكباد:

قال الرجل:

- من أين جاء كل هذا الشحوب!؟

قالت المرأة:

- ليس شحوباً ما تراه.

قال الرجل:

- إذن.. ما يكون؟

قالت المرأة:

- إنه خجل التفاح من التفاح.

ودارت المرأة حول نفسها برشاقة وعذوبة، وتوفز الديك العشاري، بينما حلق سرب الحمام في السماء الزرقاء، فعاد الباب الخشبي إلى الأنين واليد البيضاء الموشومة بالحناء تفتحه حتى النهاية، ليدخل الهواء والصوت والنهار إلى عتمة الغرفة التي طالما شهدت كوايسها الليلية.

قال الرجل للمرأة حين كفت عن الدوران:

-يا امرأة..

قالت المرأة:

-لا تحاول تثليث دائرة الرقصة فتموت الفراشة.

قال الرجل:

-أنا عارف وبصير.

قالت المرأة:

-لا تفرط بالشذرات.

قال الرجل:

-لا تُدخلي إلى معرض الخزف ثور السماء.

قالت المرأة:

-أخذتنا البلاغة بعيداً عن المرغوب.

قال الرجل:

-رجل من سفلة الناس، افتتح "شايدانه" في زاوية من زوايا سوق الصاغة عن عمد، باع شايد الخادر للجوالين والعاشرين، عشق بريق الذهب المجرم، ورائحة المكان الحافل، وببطء تسلل إلى الورشات، فعاش الصانع المهرة، وسقاهم من شايد "ببلاش" ..، ليس حباً، أو حماقة، ولكنه كان يدهن أعقاب الكؤوس بالسكر الدبق، وآخر النهار يجمع ما علق بها من شذرات الذهب الذي جمعه الدبق من الطاومات، ويوماً بعد يوم تجمع لديه من الذهب ما يكفي لافتتاح محل للصياغة،... رجل حوّل الماء إلى ذهب وهي كيمياء السفلة.

قالت المرأة:

-تلك شذرات السوق.

قال الرجل:

-جاءني في الليل، دلق زيتته على رغيبي، ثم رشه بالصعتر والسسمم، ومضى وحيداً مثل شمعة في رواق ظليل.

قالت المرأة:

-لا تفضح المستور.

ودارت المرأة حول نفسها، دارت حتى تحولت إلى شجرة نضرة، وتحول

الرجل أيلأ بقرون شجرية؁ يلس أوراقها الخضراء قبل أن يفاجئها الذبول؁ فتعري في الخريف القادم؁ أما الكف البيضاء فأعادت إغلاق الباب مرة أخرى؁ وقد اجتمع لديها فيض من الأصوات؁ والحركات؁ والخطوات المهادنة؁ فأصبح الزقاق أليفاً إلى صدرها المتزع بالحليب والرائحة والبياض؁ فعادت إلى غرفتها؁ تشرع النافذة على نور الشمس بشجاعة تحسد عليها؁ ولم يك لديها شك بأن الكوابيس لا بد ستزورها قريباً.

*الظهور الثاني:

كان الرجل ذو المعطف الرمادي الفاهي

يعبر الحديقة كقناص على عجل، يرتجف من البرد، والوحدة، والحصار الذي يخترق عظامه الهشة، وقد أحنى ظهره حالماً بليلة سعيدة، قدّم لها بمقدمات قاب قوسين من النجاح، فلقد أشعل شمعتين لبلاهة النهار، ورقش تعويذة على جلد غزال بريشة حمام بري، ثم لونها بألوان لا يذكر من أين جاء بها؟! وفي ظل بخور أعده وفوّحه مع رائحة القهوة والهال، طلب رقماً هاتفياً لامرأة كانت مشغولة في منزلها بأيقونة سورية على زجاج معشق، تتقراها بأصابعها الرشيقة، فتتوهج الألوان معمدة بالزيت، والزيت بركة.

قال الرجل:

-متى.. يا امرأة؟

قالت المرأة:

-ماذا يا رجل؟!

قال الرجل:

-تكونين وردتي.

قالت المرأة:

-وتكون شوكي؟

قال الرجل:

-أنت يمامتي الزرقاء.

قالت المرأة:

-وأنت؟!

قال الرجل:

-كوني نبيذي.

قالت المرأة:

-ولتكن دورقي.

قال الرجل:

-لك رائحة الحبر.

قالت المرأة:

-ويلي منك، وويلي عليك يا رجل.

وانقطع الاتصال في لحظة، كان الرجل يعتقد أنه سوف يستمر ألف عام مما لا تعدون، يحكي ويحكي ويحكي.

عبر الرجل الحديقة إلى الجانب الآخر.

وهو يحمل في يده كيساً أسود، أودعه دورقاً من النبيذ الأحمر المز، والتفاح الأصفر، وحفنة من المكسرات، حين لمح في البداية ثوب المرأة الأخضر المشجر بعروق نباتية وأزاهير، فخفف خطوه رغم إحساسه بالبرد الناغل، فرأها تقف تحت ضوء المصباح الحليبي، وكأنها ترضع ألوانه، تحمل بين أناملها باقة من الزنبق، وتتأمل ماء النافورة البعيدة، وكأنها تغسل كرز شفيتها وهمومها من أضرار الوقت، لتستعد لصلاة سرية أمام المرمر المغسول بالندى ورائحة المساء والناس والعشب الممدد كأغاني كروانات الليل.

اقترب الرجل منها هامساً:

-أنت هنا؟

فردت باسترسال:

-ستكون الصياد.

قال الرجل:

-وستكونين الغزالة.

وتحولت الحديقة إلى عربة فارهة، مزينة بالورد وإكليل الأكاسيا، تتطلق بامرأة ورجل إلى جهة محايدة، لكي يقيما مستعمرة لنسل جديد، ويشريا نبيذهما بحرية،

ودون خوف، ويتمتعوا بخلو المكان من الكراسي، والحرس المستعد دائماً لإطلاق النار على أي شبح، ثم يناما عاريين في معطف واحد حتى اليوم الآخر.

يقول الرجل:

-قهوتنا في الساعة صباحاً.

ترد المرأة:

-قهوتها في الساعة رماًلاً.

ويبدأ النعاس يرسم صورة للنوم على الأهداب.

*الظهور الثالث

فرد الرجل أصابعه العشر.

وفتح قلبه الكبير للخطاف، وعصافير الجنة، واللقاق، وهو يستلقي على رمل
الفرات تحت شمس ناعمة، فدغدغ الماء باطن قدميه فعل السمك الصغير،
فاغرورقت عيناه بالضحك النظيف، وغطى الرمل السافي ساقيه، فنمت أعشاب
سوداء، وغرق الوقت بالحصى الرقراق، فأدغلت الحوائج بالطرائد والسلالات
النهرية والأرواح، فهجس الرجل:

"-امرأة تطلع في لحظة نزق، تجلس أمامك على كرسي من القش، فتوسوس
شنوف جلها الفضي، المزين بالخرز الأزرق كلما حركت قدمها اليسرى تدخن،
وتثرثر، وترن ضحكاتنا الصافية كأجراس الماعز، وفجأة تنهض كزوبعة... تاركة
لك:

كرسيها خالياً:

وعلبة دخانها فارغة.

وخلخالها الفضي مرمياً على الرمل، تعويذة سحرية.

ثمة جمار تنتظرك- أيها العاصي- لترمي بها من غابوا يوماً وقالوا: نلتقي".

نهض الرجل من مكانه، فاستقبلته رائحة المرأة، خليطاً من التبغ ودوار
الشمس وعبق الفل، فظل مسمراً مكانه، وعيناه تدوران في محجريهما دهشة.

قالت الرائحة:

-أطلق أبواقك أيها الصياد.

قال الرجل:

-هذا ليس موسم الصيد.

قالت الرائحة:

-أطلق أبواقك.

حينها امتلأت السماء بالزرزير والإوز والحبارى وسمك الشبوط والكلاب

السلوقية والصيادين.

*الظهور الرابع:

كان يتدلى من أذني المرأة قرطان طويلان

من اليشب الأحمر البراق، وهي تجلس عارية على الكرسي، تزين شعرها الجتل بريش الهدهد والسمان، وقد كشفت عن أسنان بيضاء كبذور الشام، فبدت غمازتان عند ملتقى الشفتين، وحول عنقها التالع لفت شالاً من الحرير الأسود الناعم نعومة قرن اليرقة.

وفي الجهة المقابلة وقف الرجل، يتأملها بافتتان، وأصابعه الملوثة بالزيت والألوان، تتابع حركة الريشة على القماش، واللوحة قاربت الاكتمال، بعد تعب طال عامين.

قالت المرأة:

-أنا مرهقة وخائفة.

قال الرجل:

-آن لك أن ترتاحي.

قالت المرأة:

-ماذا تعني؟

قال الرجل:

-يموت الفنان، تموت الموديل، وتبقى اللوحة.

قالت المرأة:

-ألسنُ اللوحة؟!

قال الرجل:

-لا.. ولا أنا.

قالت المرأة:

-ومع ذلك ستحمل اسمي.

قال الرجل:

-ربما.

وببراعة وقّع في الجهة اليسرى، ثم اعتدل، وطوّح بالريشة بعيداً، وصاح
بابتهاج المنتصر:

-قفّي.

فقامت المرأة من مكانها. وتقدمت بثقة وكأنها على موعد، طال انتظاره فهي
لم تشاهد ما يقوم به الرجل.

قالت المرأة:

-آن الأوان.

قال الرجل:

-لك الحق الآن.

وابتعد قليلاً، ليفسح للمرأة مكاناً، ترى منه اللوحة، لكنها حين نظرت،
صعقت، فماذا رأت؟ رأت سمكة ذهبية، تسبح في نهر من الرمل والبيوت والوجوه
المعذبة، فصاحت بصوت كالنباح:

-هذا جنون، لقد كنت تخدعني.

قال الرجل:

-لقد شاركنا معاً في الخديعة، فكفي عن العويل.

قالت المرأة:

-أنت معتوه.

وانطلقت في الشارع عارية كالمجنونة، وكانت المدينة نائمة، والشوارع خالية،
لكن دورية الشرطة المناوبة، ألقت القبض عليها بتهمة الخروج عن الآداب العامة،
وهي في المخفر ظنّها الضابط المناوب سمكة فأرسلها إلى منزله مع الحاجب،
ليعدها للغداء، بينما تحول الرجل إلى سرطان، يدب على الرمل، متجهاً إلى
البحر، وهطل في تلك اللحظة مطر غامض من سقف الغرفة، محا البيوت

والوجه من اللوحة، فبدت كمومس عجوز، تقف تحت "الدش" عارية أيضاً.

*الظهور الخامس:

كان الرجل نصف قديس، نصف مجنون.

أعطاه الله موهبة، اختصه بها، فكان يخترع أسماء غريبة لكل ما يقع عليه نظره، فسمى قريته الصغيرة "صباح الخير".

وسمى بقرته الضخمة "نملة".

وسمى مخفر الدرك "معرض الجثث الفخمة".

وسكان القرية "أولاد الجن".

أما جازته الطولة فخصّها باسم "وردة الختمية".

وذات يوم- لأنه عازب ووحيد- جاء بجهاز مذياع، أدهش القرية النائمة، فاستيقظت، وأصبح بيته مساء كل خميس ملتقى الساهرين القادمين من بيوتهم وقد تعطروا، ولبسوا أفضل ما لديهم، فتدار كؤوس الشاي الخادر، ويتصاعد دخان التبغ، وسط الصمت والإصغاء الخاشع لصوت المذيعة العذب وهي تقدم لهم مطربتهم المفضلة في سهرتها المعتادة.

وكان الرجل، وهو يجلس تحت شجرة التوت العملاقة، يحلم بالمطربة التي سماها بأحد أسمائه العجيبة "قرة العين"، وهي تشرب الشاي بالنعنع البري معه ليلاً، وتشاركه خبز "العباس" صباحاً، هذا الخبز المقدس، الذي لا يقدم إلا في المناسبات المباركة، والنذور مدهوناً بالزبدة والدبس، مخلوطاً بالسّمسم وحب الشونيز، فيأكل نصف الرغيف، ويترك لها النصف الآخر، وهو يردد:

-ليت للبراق عيناً..

ولأن المخافر عين الحكومة، وذراعها الطويلة فقد رأى رئيس المخفر في المذياع تهديداً لسلطته وأهميته، فصادره، بحجة الحفاظ على الأمن، ومنع

التجمعات الكبيرة، فعاد الناس خائبين إلى منازلهم، يجترونها الخيبة والخوف، وقد فقدوا مسراتهم الصغيرة، وأفراحهم التي كانت تضيفها "قرة العين" كل ليلة خميس على حياتهم، بينما لزم الرجل الصمت والكآبة، يشرب الشاي مع النعنع البري تحت شجرة التوت صباحاً، وقد ترك خبز "العباس" إلى حين عودة "قرة العين" من أسرها عند الأعداء، لتقوده إلى دائرة الفرح، وقد نسي كل الأصوات إلا صوتها الساحر، الذي يسمعه في الأمسيات قداماً من المخفر.

*الظهور السادس:

قال له أبوه قبل أن يرحل:

-أنت وحيد وضعيف، فحذار من كلاب الدم، فهي تشم رائحة الطريدة الخائفة والوحيدة.

وقال له صديق عمره:

-لا تلعب دور الطرائد، فلم تخلق له، كن الصياد.

وقالت له المرأة التي تسكن في المنزل المقابل قبل أن تهجره إلى أحضان رجل آخر من نفس الحارة:

-لك رائحة تخيفني، ثم عيناك.

ومع ذلك رضي بوردة حمراء، تتركها له سيدة جميلة في نافذته، ثم ترحل دون أن تراه، أو تحادثه، فكان يحلم كل ليلة بشرفة وقمر وورد أحمر وامرأة، تغفو على صدره، فتصحو المجرات، وشبابيب الفرات، وشموس القبيظ الحنّان، والمرائي التي نسيها في وحدته، وخوفه، وضعفه، وادكاراته.

ويوم اقتحم كلاب الدم غرفته كآخر الطرائد، توفز، ثم خار، واستسلم مليياً نداء البوق النحاسي، وكانت السيدة الجميلة وسط الورود الحمراء تملأ الجدران، فصادروها، كما صادروا ورودها الحمراء الذابلة، واقتادوه إلى جهة مجهولة في سيارة، تحمل لوحة مؤقتة، فرأى الطرقات كما لم يرها من قبل.

قال له المحقق:

-أتعبتنا يا رجل.

فلم يرد، فتابع الرجل:

-كيف تفضّل قهونك؟

فرد بصوت هامس لكنه واثق:
-كثيراً من البن، كثيراً من الورد الأحمر.
قال المحقق:
-يبدو أنك لا تريد العودة إلى البيت.
قال الضعيف:
-تلك حال الطرائد إذا وقعت في شرك الصياد.
ونام ليلته الأولى على البلاط، ومع ذلك ظلت الورود الحمراء تصله بانتظام.

*الظهور السابع:

قال الرجل لصاحبه المجتبي:

-هي أخطاء القلب في الصرف.

قال صاحبه:

-كيف؟!

قال الرجل:

-تحول السد إلى دس، والسعد إلى عدس.

قال صاحبه:

-زدني.

قال الرجل:

-ما تقول في النون؟

قال صاحبه:

-قل أنت.

قال الرجل:

-سراج الليل، وزيت البركة، ومؤونة الشتاء، وفرو السمور، وكستناء
المترفين، وعين الحوت، وجمار النخل.

قال صاحبه:

-أغفلت شيئاً أيها العارف.

قال الرجل:

-دع السيدة الجميلة، ترتدي فروها الأسود، وتسدل قناعها الحجري، وتعلن

الاختفاء، فهذا القلب خائف، وهذا الظهور خفاء.

قال صاحبه:

-لك الأبوأق.

قال الرجل:

-لي المزامير إن شاء.

وللم الرجل ورده الأحمر الذابل، وخوفه الأبدى، ولبس معطفه المطري، ثم حمل حقيبته وانطلق كقناص يبحث عن طرائده، وحين نظر إلى أعلى، رأى نافذة مضاءة، وشبح امرأة، بدت جميلة وسط الغيش، فتوقف.

كان المطر ماتعاً، وقطراته تتساقط من أنف الرجل، وهو يفتح حقيبته، ويتناول منها بكل هدوء بندقية صيد خبأها طويلاً في القاع، ثم سدد بإحكام المحترف، لحظتها دفق الصوت من جهة مجهولة أمراً.
-أطلق جحيمك أيها الصياد.

فضغط على الزناد البارد، فسمع الحي كله دوي تحطم الزجاج، لكنه لم يسمع صوت السقوط لجسد المرأة الجميلة، والدماء تسيل منه، وفاحت رائحة البارود، تختلط برائحة المطر والورد الذابل، وتابع الرجل رحلته تحت المطر، وثمة نداء كالعويل انطلق من سيارة شرطة عابرة، لم يأبه به أحد.

www.alkottob.com

www.alkottob.com

" النصُّ الثالثُ "
فساد الملح

« هذه الحكايات نبيئة لا يربطها سوى
الراوي والمكان.. ولا تكتب إلا بهذه
الطريقة وهي مع ذلك نص واحد. »

1-الدوارة:

من أين جاءت فضة العلاوي؟

لا أحد يعلم، فكل ما يذكره الناس من أهل البلد، أنها قدمت أواخر الأربعينات من الشرق وحيدة مع ابنتها الصغيرة وابنها الشاب الوسيم، وسكنت حارة الشراكسة في منزل بسيط يطل على سرير النهر، ويجاور التكنة التي رحل عنها جنود الاحتلال، مخلفين وراءهم مهاجعم ذات السقوف القرميدية الحمراء، ومكاتبهم التي نهبها الأهلون، وذكريات لا تنسى.

ولم يكن معها ما يهم أو يلفت النظر من الأثاث سوى ماكينة خياطة حديثة، فذاعت شهرتها كخياطة بارعة، تقصدها العرائس الصبايا وزوجات الوجهاء وكبار الموظفين.

كانت فضة جميلة وأنيقة، لكن أحداً من الجوار لم يجروا أو يحاول التقرب منها، فقد وضعت سوراً من الصمت حول ماضيها، وكان لها من قوة الشخصية والحضور ما جنبها مواقف تخرجها، فهي تهتم بعملها أكثر مما تهتم بالثرثرة على عادة الخياطات، بل العكس كانت تستمع إلى ثرثرة الصبايا وهمومهن دون أن تعلق.

أما الابن فعشق النهر، وصيد السمك، والليل الساحر، ولم يصدر عنه ما يؤذي فاستراحت العائلة إلى هذا النوع من الحياة الهادئة، والعلاقات المتوازية، وخطبت الأم لوحدها فتاة جميلة، رأت فيها زوجة مناسبة للابن، ومساعدة لها في البيت.

- لا أريد أن أموت قبل رؤية أولادك.

قالت له.. فأجاب:

- يومي قبل يومك.

فشهقت وقد لايت عيناها في محجريهما.. وصاحت:

-لا تقل مثل هذا الكلام مرة أخرى.

ثم أردفت:

-إن شاء الله "عدوِّيك".

وليلة العرس قتل الابن، فجئن جنونها، فالقاتل مجهول، والسبب غامض، فمن

أين جاء هذا العدو؟!

ومنذ ذلك اليوم..

كانت فضة العلاوي تخرج صباحاً، بثيابها السوداء، وشعرها المقصوص،
وأسنانها المصبوغة بالأزرق، تحمل بيدها اليمنى كتاب الله، وبالأخرى السيف،
ومن خلفها ابنتها، تحمل هي الأخرى ثوب أبيض وقد مزقته طعنات
الخنجر الغادر، وصبغته الدماء، وقد فاحت منه عطور العرس الذي لم يكتمل.

وتدور فضة في الأسواق.

تدور في الأزقة والحارات، وتقف أمام الجوامع تستحلف الخلق بالقرآن كتاب
الله، وبالسيف سيف علي، من رأى أو سمع أو عرف شيئاً عن القاتل أن يقوله
وإلا فسوف يكون الله خصمه يوم القيامة.

تدور فضة، تضرع، تبيكي، ونداؤها الحزين يتسلل إلى النفوس، وحين تصل
إلى مزار "أويس القرني" تسند رأسها إلى حائط المزار الحجري، وتسترسل في
مناجاة طويلة لصاحب المزار تطلب الثأر لدم ابنها المظلوم.

وآخر النهار، تعود فضة إلى بيتها حزينة، مرهقة، تستعد لدورة اليوم القادم
بكثير من الدموع والكلمات التي لا تجد صدى لها في قلوب القتلة الحجرية.

2 - دَيْن صغير:

- يا جدي.. مات جدي فأنت جدي بعده.

قال خليل للقبر الحجري الصامت، وقد أحس بالأمان، يتسلل إلى روحه القلقة، لوجوده تحت سقف بعد تشتت ونوم تحت الأشجار أو في الخرابات، وقد يكون الأمر معقولاً في الصيف أما في الشتاء فهو الموت.

ونام خليل ليلته الأولى في المزار وكان خائفاً من الظلمة والسكون الغامض ومرور الريح، فأشعل شمعة من شموع جده، فسكن روعه، فقرأ ما يحفظ من أوراد وقصار السور.

ويوماً بعد يوم.

ظل خليل يأوي إلى المزار، وذات ليلة اكتشف أن بعض الزائرين ترك بضع قطع نقدية في طاسة النذور الصدئة، فهاب أن يمد يده إليها، لكنه مع الجوع واليأس تناولها، وقد وقف يقسم أما القبر:

- أقسم.. سأردها يا جدي.

ثم أردف بعد صمت قصير:

- سأعتبرها ديناً.

ويوم أعيد خليل إلى بيت العائلة، وانتهت رحلة التشرد والخوف، ظل يزور جده في المزار، وتوالت القروض، وهو يقسم أن يردها، وعُين خليل موظفاً صغيراً ثم كبر سنًا ومرتبًا، وبقي دين جده في عنقه، يذكره لحظات السكر، فيبتسم، ثم يدمدم:

- أنت جدي.. والجد لا يطالب حفيده بمال أو دين.

3- رجل مستقل:

حين يخرج جعفر سليمان خاسراً

بعد كل لعبة قمار، يدخل أول "ميخانه" يصادفها في طريقه، فيشرب حتى "ينترمخ" على حد تعبيره في تسمية الأشياء، وتتعدد الأناخاب:
فالنخب الأول لكل النسوة الجميلات في مضارب العجر.
والنخب الثاني لكل الذين هزمهم في حياته.
والنخب الثالث محبة لأنها للبشر أما "صحة" فللثيران.
والنخب الأخير لكل من هزموه.. لأنهم يستحقون.
ثم يخرج جعفر سليمان في طريقه إلى البيت، وقد كظم الغيظ، وحين يقابله أول جدار، يبدأ في نطحه حتى يسيل الدم من رأسه، فإذا أسرع إليه الحارس الليلي أو أحد العابرين.. صرخ في وجهه:
-الرأس رأسي والحائط للبلدية.. فلا يتدخل منكم أحد.
وعند الفجر يغفو مثل طفل معفراً بالتراب والدم.

4- حمير سعدو البكاري:

يزور العيادة سعدو البكاري أحياناً

فهو مغرم بزيارة الوجهاء والأماكن الفخمة، والظهور بمظهر الرجل الهام، وكأنها جزء حي من ممتلكاته المهابة، ومع ذلك يطل منه فقر قديم، وحاجة تنم عنها حركاته في التسلق والتزلف، لبناء مكانة موهومة، ورأسماله انتماؤه إلى مدينة مثل حلب أكثر عراقية ومعرفة بالتجارة والسماع.

وسعدو رجل جاوز الستين من العمر، دائم الشكوى من السعال وسرقات العمال في متجره الكبير، وكأنه وسواس قهري، يرتدي قمبازاً من الحرير المفتوح وطربوشاً عثمانياً وداسومة حمراء، وقد برقت في أصابعه الخواتم الذهبية وهو يردد باستمرار:

-مال لا يدفع صاحبه الزكاة مصيره الحريق.

وسعدو البكاري عمل عتلاً في أسواق حلب، يتلقط رزقه كالدجاج من مزابل التجار الكبار، ثم بائعاً دواجاً على حمار في قراها القريبة، وقد هاله الثروات العريضة والقصور الفخمة، والحمامات والوجوه الوضيئة، فأيقن أن حظه في مكان آخر. فباع كل ما يملك - وما يملكه قليل حتى الزهد - ثم توجه مع زوجته العروس إلى الشرق.

-الغني بين قرياط أفضل من الفقير المتعوس بين تجار حلب.

قال لزوجته متأسيماً - ثم تابع:

-المصاري يا فطوم هي التي تصنع الجنة والنار اليوم..

ولما حظ في هذا البلد.

اكترى غرفة ومطبخاً وساحة ديار في الأطراف بسعر زهيد، ولم ينتظر،

اشترى حمارة الأول، وبدأ تجارته المتواضعة وحيداً، يرحل إلى القرى القريبة ستة أيام، وفي اليوم السابع يعود وسخاً، يأكله القمل، والحاجة إلى لقمة نظيفة وحمام ساخن وامرأة تملأ فراشه، فبارك الله تجارته، فاشترى حمارة الثاني، وهو يجمع القرش على القرش، يذهب بالمرايا والكحل الأسود والساكر والصابون والخرز، ثم أضاف البيلون والأمشاط ويعود بالقطن والصوف والحنطة والبيض حسب المواسم.

وتوسعت أعمال سعدو، فاشترى حمارة الثالث والرابع، وحين بلغ عدد حميره عشرة، بدأ يؤجرها إلى باغة فقراء، ويكفلهم عند أصحاب المخازن مقابل نسبة معينة، وآخر الأسبوع يحاسبهم، فزادت أرباحه، وتطورت أحواله فافتتح دكاناً صغيرة لبضائع يحتاجها شركاؤه الصغار.

ومع الأيام تطورت أحواله، وتوسعت أعماله، فباع الحمير لشركائه، واستثمر رأسماله المتواضع في شركات (عظم) مع الغنامة حيث السمن والصوف وتجارة اللحم، وكبير متجره وأصبحت له أسهم أخرى في زراعة القطن والقمح، فلمع اسمه كالذهب بين البدو الغنامة ومزارعي الريف القريب فظن أنه حقق ما يريد.

ويوم احترق مخزن سعدو البكاري، اهتزاز السوق، لكن أحداً لم يندهش وكأنهم ينتظرون ذلك، فتذكر سعدو أنه نسي كل هذه السنين دفع الزكاة فعرض إصبعه ندماً، ولم يعد إلى الشكوى مرة أخرى من سرقات عماله، لكن السعال لم يفارقه.

5-مجنون الجسر:

ملّ خلف بن شيحان البرية.

ملّ رعي الأغنام ومعاشرة الشُعبان، فاتجه إلى البلدة، وهو اليتيم المقطوع من شجرة، ولم يجد صعوبة في إيجاد عمل، فالتحق بعمال بناء الجسر، وقد هاله ضخامة البناء، وحركة الناس، والتحدي الكبير الذي يبديه المهندسون الانكليز أمام النهر الجبار.

-يا الله.. هؤلاء ليسوا بشراً، فمن يقدر على النهر؟! لا بد أنهم من جن سليمان.

صاح بدهشة وانبهار.

وتابع حمل الرمل والحصى والإسمنت والحديد حتى كلّ كاهله، وكونه بلا منزل يأوي إليه، أو قريب يحتمي به، نام إلى جانب النهر، فأوكل إليه المهندس المشرف الحراسة ليلاً، فاستراح من التعب، وأحب المكان، فالجسر يرتفع، ويمتد كوحش خرافي من الإسمنت والحديد.

-سيكون أقوى من النهر.

ردد وهو الذي تعلم أن ثلاثة لا يقهرون في عالمه: النار والدابّ والنهر، وها هو النهر يستسلم، يكسر ظهره هذا البناء القوي.

وانتهى بناء الجسر، رحل الانكليز، وعاد الفرنسيون، وظل خلف بن شيحان في وظيفته يحرس الجسر، ويشعل الفوانيس للعابرين ليلاً، يأكل، ويشرب وينام هناك، يرقب الماء وأنوار المدينة البعيدة.

ورحل الفرنسيون، ولم تعد هناك حاجة لخدمات خلف الذي نسي عمره ولم ينسَ الجسر، لقد تحول إلى جزء منه ومن تاريخه، وظل يحرس الجسر بلا أجر أو تكليف من أحد، ينام في المحارس الإسمنتية التي تركها جيش الاحتلال.

ولم يتزوج خلف أو يفكر بالعودة إلى البرية، فلمن يترك إيقاد الفوانيس

وحراسة الجسر إذا عاد؟!!

6- حرص:

حين سمع العم حمود السجيع العجوز من جيرانه أن خطوط شركة البترول الانكليزية العابرة في الأراضي السورية، قد نسفت احتجاجاً على العدوان الثلاثي على مصر، وتعطل الضخ، وربما ينفقد البنزين من المحطات، لعب الفأر في عيه، وساوره القلق، فما عاد يهدأ، أو يستقر في مكان خوفاً على قداحته الجديدة.

فالعم حمود اشترى منذ أيام قداحة حديثة من نوع- جق مق- تعمل على القطن والبنزين بدل قداحة الفتيل، لها لهبة ذهبية رائعة حين تشتعل، ولها صوت عذب وخافت حين تشتعل، وكأنها تهمس:

- جق مق.. جق مق.

لذا أسرع إلى أقرب محطة، ليملاً قارورة من البنزين، سدها بحرص وحذر، ثم أخفاها عن عيون العائلة، وكأنها كنز ثمين.

ومرت الأيام، ثم أصلحت الأنابيب، ومع ذلك لم يفرط العم حمود بكنزه الثمين وهو يردد:

- الاحتياط واجب.

7-مشكلة:

يأتي محمود موسى إلى العيادة

وشكواه الوحيدة الدائمة وجع الرأس، فالأولاد صداع، وثرثرة النساء صداع، وكثرة طلباتهم صداع، فيخيره الطبيب بين أمرين: أن يبسط يده قليلاً أو حبوب الأسبرين دواء، فيختار الأسبرين لأنه الأرخص، ولكنه لا يكف عن سؤاله الدائم:

-كيف لشيء يذهب إلى معدتك أن يشفي رأسك يا دكتور؟

فيضحك الطبيب بصفاء ثم يجيبه:

-هذه من أسرار ربك.

-جلت قدرته.

يردد باستسلام، ثم يمضي إلى أقرب صيدلية ليشتري دواءه، وهو يلوح بعصاه الأنيقة، والابتسامة لا تفارق شفثيه.

8-الدين ممنوع:

أسفل عيادة الدكتور حمدي حمودة.

افتتح مصارع الصالح دكانه، ولم يكُ الرجل معنياً بالأشياء أو البضاعة المهم عنده أن يدخن نرجيلته، ويستقبل أصدقاءه يتمازح معهم أو يروون له حكاياتهم الطريفة، ثم يحصي خطوط بائع السوس الذي يمر عليه يومياً يقرقع بصنجاته النحاسية، ويردد أوراداً عن المشروب أقرب إلى أناشيد الصوفية، وهو يرسم على خدة الباب عدد طاساته.

نحاس يرن، وقماش يرتاح على الأرفف، وزبائن عابرون، يسألون عن زراير الوقت الضائع، وهو يبادل الدكتور حمدي السلام والتحية بمودة عالية، ويضحك ساخراً من مرضاه، ويعلن عابثاً مثل سلوكي مرح، أمامه بمودة صادقة:
-من عاشر المرضى يمرض.

ثم يتابع:

-دواؤهم الوحيد الضحك يا حكيم.. فضفه لهم.

وتكررت بعد ذلك زيارات مصارع الصالح إلى حلب بحكم عمله، فذاق طعم الكباب عند "أكوب" الأرمني، ورائحة المال، وأبهة الثراء، فداخ، ثم عاد يحمل معه لوحة مكتوبة بخط أنيق "الدين ممنوع" وكأنها تعويذة سحرية تجبي الأموال وترسم الحدود بين البائع والمشتري، وتوقف نزيه الدين الموسمي المائت.

ويوم جاءه أول صديق يطلب جلابية- كالعادة- ديناً اعتذر باللوحة القائمة كحارس أبدي في صدر المكان، وتتابع الأصدقاء والعذر واحد والجواب واحد:
-الدين ممنوع.

وتابع مصارع تدخين النرجيلة غير عابئ بما يجري، وقد خف الأصدقاء،

واختفى بائع السوس، وقرعة صناعاته النحاسية، فأحس بالتعاسة والوحشة فلجأ إلى الصلاة.

وذات مساء جاءه عابر سبيل، لم يره يوماً، سلم كال دراويش وسأله كوفية بيضاء ديناً، وحين أشار إلى اللوحة، ضحك الرجل وقال:

-اعتبرها هبة أو زكاة.

فرد بحسرة:

-قلبي لا يطاوعني.

-هذا القلب خريان.

-وما أدراك بالقلوب؟!!

-لأنه يطاوعك على أن أظل بكوفية وسخة وهريانة.

-اغسلها يا مسلم.

-صارت مثل الحلاوة، إذا غسلتها ذابت.

-ماذا تريدني أن أفعل؟!!

-تصرف.

-لن نكون تجاراً مثل الحليين، فالحياء يأكل نصف حقنا، والقراية تأكل النصف الباقي.. أمري إلى الله.

-آخذها؟!

-لا.

قال.. ثم استدار إلى الخلف وهو يدخن ويضحك بصفاة متابعاً:

-اسرقها يا رجل.. اسرقها، فوالله سرقتها أحلى من العسل على قلبي. ثم قام إلى اللوحة يدوسها بقدميه.

ولم يمت مصارع الصالح من الجوع، على العكس ظل يدخن بشراهة، ويضحك بشهية، وكلما يئس من استيفاء دين من ديونه كتب إلى جانبه في "خزائن الله".

ويعد الاختفاء الذي لم يفهمه أحد للوحة، عاد بائع السوس بصناعاته النحاسية وقلمه الثخين الذي يضعه وراء أذنه، وامتلاً الدكان بالأصدقاء وأنفاسهم التي افتقدها مصارع طويلاً.

9-أسلاف:

كان أسلافه ثلاثة أخوة.

أكبرهم عمل خازناً للأسرة، تصب أموالهم في جواره الفخارية، فلا ترى النور إلا لأمر جلل، فورث نسله البخل والبلاهة وحب الرنين، واعتنى الأوساط بالقهوة المرة والمضافة، والجلوس إلى الناس، فنزر نسله، وقلوا، ولم تفارقهم العنجهية وحب الوجاهة، والتقرب من المسؤولين، وذوي المناصب العالية.

أما الأصغر

-حليمة الأسرة، وزيرها، فقد علق بعشق الخيل الأصائل والنساء والسماع في مجالس الطرب، فكان منه أجواد الأسرة، ومجانينها، وقد زاد عليه الأحفاد هواية الصيد.. فقل ما بيدهم من المال.

عالم الأسلاف هذا، قد مضى، ولن يستعاد.

...

ملاحظة : وجدت هذه الورقة في كتاب قديم باعه الورثة.

الكاتب

10. ثورة في خان:

أبو عزيز من الظرفاء المميزين في حارتنا.

له عادات غريبة ولطائف عجيبة، يتحفني بها في لقاءاتنا المتفاوتة، فهو يعرف مدى حبي لسماع الحكايات وكتابتها، وله تعليقات ساخنة أحياناً على ما أكتب.. كأن يقول:

. حكاياتك عن فلان بهاراتها كثيرة.. يا أستاذ.

أو يقول:

. نحن لسان، وأنت لسان وقلم.. لهذا أنت الرابع.

. أنت البركة "أبو عزيز".

. هذا تطيبب خواطر أستاذ.

ويمضي ضاحكاً في السوق، يمارس هوايته الأثيرة، فيشرب كأساً مثلجاً من "العيران" عند البيراوي، ثم يتابع طريقه، وكلما وجد قطعة من الحديد، رماها على أول سطح بناء يقابله، وإذا لم يجد حديداً، تناول أي شيء أمامه وطوّح به عالياً، فحربه المقدسة هذه قائمة. ولا نهاية لها.

ويوم ورث الرجل قطعة أرض قريبة من "بازار الأغنام".

بناها قاووشاً مستطيلاً من اللبن والتين، ثم سبّطه بأغصان الشجر وأعمدة التوت وسماه "خان أبو عزيز"، وقد فرح به كثيراً، وحوّله إلى مستودع لخردة الحديد، وزاد، فجاء بزوج من الأرناب، تكاثر بجنون، ولأنه يحب كل شيء رخص ثمنه جاء بالإوز والدجاج والخراف والماعز، فأصبح للخان شهرته، فبات يضرب به المثل، وأبو عزيز ماهر في تصريف بضاعته لزبائن فقراء، يريح منهم مالاً، ولذة كبيرة، هي لذة التجارة.

ثم حدث بعد ذلك ما حدث.

فلقد انفجرت ثورة عاصفة في الخان، اقتتلت فيها كل مخلوقاته، حتى تحوّل المكان إلى مسلخ دامٍ، فنفق معظم الأرناب والخراف والإوز والدجاج، وكانت الأصوات تصل إلى أطراف البلد، دون أن يأبه بها أحد، أو يهتم لها مخلوق فالخان لا بدّ تسكنه الجن.

وقيل سبب ذلك حصان أودعه صاحبه عند "أبو عزيز" فجن جنونه في الليل، وقيل كلب سائب دخل الخان فأثار الحيوانات، وكان سبباً في تلك المجزرة المرّوعة، وقيل سببه طاووس جاء به من الشرق، وقيل.. وقيل.. ومع ذلك ظلّ أبو عزيز، يذكر تلك الثورة بحزن سرعان ما يتحول إلى سخرية مريرة.. قائلاً:
- المهم ما زال الخان موجوداً، والحديدات موجودة، والباقي من السهل تعويضه.

ثم يعقب:

. ما لي وللحصان والطاووس!! الأول مجنون والثاني مغرور مثل إبليس.
وقبل وصوله إلى البيت، يتوقف قليلاً ليتناول كسرة خبز يابسة، يقبلها بحب واحترام، ويمررها على جبهته، ثم يضعها على مكان عالٍ، حتى لا تطأها الأقدام.. فالخبز مقدس.

11. رأيت غجراً غير سعيداً أيضاً:

في أواسط الخمسينات.

وخلال الانتخابات الأخيرة إلى المجلس النيابي، اخترع أحد المواطنين الخبثاء مواطنين حدداء، استطاع الفوز بأصواتهم في معركته الانتخابية دون عناء، وبأقل التكاليف المادية، فالمدعو طارق أبو ربيع رجل من أسرة ثرية، لكن ليس إلى حد البطر، ولأن أسرته قليلة العدد أمام تحالفات العشائر التقليدية، لا تسمح لأمثاله باختراقها، وإلا دفع ثروته وثروة العائلة دون جدوى، فأطلق حكمته:

. من خانه العدد لا يخونه العقل.

من هنا ولدت فكرته، فإذا كان بعض شيوخ العشائر يشتري الصوت بخمسين ليرة، فهو يستطيع شراء أصوات أناس بعشر ليرات، والصوت في الانتخابات صوت سواء كان لشكري القوتلي أم لعتال في سوق الأغنام.

. ولكن أين يجد مثل هؤلاء الناس!؟

وبالتواطؤ مع قائد فصيل الدرك ومأمور النفوس، استطاع طارق أبو ربيع تسجيل غجر البلدة وقرباطها وكاوليتها في السجلات الرسمية كمواطنين . كانوا مكتومين . فاستلموا هوياتهم ومع كل هوية عشر ليرات جديدة تذيح الديك، ثم انصرفوا بعد الإدلاء بأصواتهم، في تجمع أدهش الناس وأصاب المرشحين بالفزع.. فصاحوا:

. لقد فعلها ابن ربيع..

وبعد شهرين من فوز الرجل بكرسي النيابة.

بدأت دعوات السوق إلى خدمة العلم، تتوالى على الشباب لمن هم في سن التكليف، أو دفع البديل النقدي الباهظ بالنسبة إلى أمثالهم من الفقراء.

وَجُنَّ جنون العجر .

ففارقته السعادة، وليالي السهر الطويلة، وساقهم عسكر قساة إلى مراكز التجمع والتدريب في حلب، وبدؤوا بشتائم طالت قائد الفصيل ومأمور النفوس، والنواب، والبلد الذي خدعهم وغشهم، ومع هذا لبسوا ثيابهم العسكرية، وتسلموا البنادق بعد أن حلقوا رؤوسهم، فظلوا كلما سمعوا اسم طارق أبو عزيز، ينفزون كالمسوعين، مطلقين شتائم لا تنتهي.

12. من حكايات قُوم المقام:

* الحكاية الأولى:

إبان الاحتلال الفرنسي

عَيَّنت حكومة الاحتلال قائمقام على البلد، وكان الرجل مدمناً على الشراب لا يصبر عليه، ولا يستطيع فراقه، ولأنَّ المستشار الفرنسي أسبق منه في المنطقة، وأكثر خبرة ومكرًا، علمه حيلة يحقق بها مرامه، دون حرج أو خوف.

فقد اتفق في سهراتهم الليلية مع صاحب مطعم المنتزه الأرمي، الذي يفدان عليه، وهو الوحيد في البلد، أن يقدم لهما الويسكي المفضل عند القائمقام في إبريق شاي من الصيني، يسكبه في الفنجان فيظنه الناس زهورات، وقد سأل الزبائن جوزيف منكلو صاحب المطعم عن سرّ الزهورات هذه، قائلين:

. ألن يشفى البيك من الزكام!؟

فردَّ هامساً:

. يقولون إن زكامه لا شفاء منه، لكنه لا يعدي.

ولم يستطع جوزيف منكلو إخفاء السر، فباح به لبعض الوجهاء المأمونين فكانوا يهمسون في أذنه:

. هات لنا من زهورات القائمقام.

فيضحك.. ثم يردد ساخرًا.

. كنت أظنّ أن زكامه لا يعدي.

فبيئسمون بخبث، وقد لمعت عيونهم كالأرانب.

* الحكاية الثانية:

حين جاء لظفي بك بذة قائمقام على البلد

أواخر العهد العثماني، كان الرجل مغرمًا بركوب الحمير، فهو يكره الخيل لسرعتها وجموحها، والبغال لعنادها وطباعها السيئة، والجمال لخلقتها الهائلة. وكونه رجلاً عجوزاً، لحيماً في الستين من عمره.

اشترى حماراً "شهرياً" من بعض الصلبة الذين اشتهروا بتربية هذا النوع من الحمير الفارهة، وقد زينته، فاشترى له "جلالاً" فاحراً من الجلد والمخمل، وركاباً مفضّضاً.

وفي الصباح، ينطلق الرجل بحماره نحو دار الحكومة "السراي"، منتصب الصدر، منفوخ الوجه، بطريوشه الأحمر ونياشينه، وحين يصل إلى مسافة قريبة من السراي، يطلق الحمار صوته بنهيق صاخب، فيستعد الحرس، ويتقدم براكبه، وسط المراسم المعتادة، فيتوجه القائمقام إلى مكتبه، بينما يقود سائس خاص الحمار إلى أصطبله.

* الحكاية الثالثة:

مصطفى بك قائمقام غريب الأطوار

له فلسفة خاصة، لا يباح بها إلا للخاصة.. فيقول:

- الحكاية في هذا البلد خبز الفقراء، وصديقة لياليهم الطويلة، وفاكهة تعلولاتهم، ينقن العجائز في سردها، وأسطرتها، وتخريفها كأمر الرواة، يأكلونها "أداماً" مع الخبز، ويشربونها مع اللبن الرائب، ويضجون بالاستحسان حين يشاركون في الخديعة، إنها حديقتهم السرية وكذبتهم المبررة والمفضلة دائماً.

لذا لم يكن مغرمًا بشيء قدر إغرامه بهذا النوع من الكذب ورواية الحكايات الخيالية، التي يختار لها مسرحاً في الهند أو الصين، قرأ رحلة ابن بطوطة وحكايات ألف ليلة وسواها.

ولأنّ البلد يقفر من السكان في الربيع، كان يرحل معهم إلى النجعة في
البادية وفي الليل يبدأ حكاياته التي يكون دائماً بطلها، والساهاون في المجلس،
يرمقونه بإعجاب ولذة وسط دخان التبغ ورائحة القهوة وضوء القناديل، وكأنه كائن
من عالم آخر.

وفي الصباح.

يعترف لهم بكل صراحة، أن كل ما رواه لهم لا أصل له، فيهزّون رؤوسهم
غير مصدّقين، مطالبين بالمزيد، فالحكاية الساحرة لا يهم صدقها من كذبها المهم
أن يكون الراوي موجوداً.

13. فساد الملح:

آخر النهار يعبر المازة.

من عمال مياومين عائدين، وماسحي أحذية صغار، ويتابع مرتب الحمام طقوسهم اليومية في مراقبة حركة الطيور، وكأنهم في مهرجان للألوان والريش والمناقير المقدسة والخرز الملون.

ويبدأ جابر الحامدي نفضاته التي ظلت آخر ما يتحرك فيه، هي القلب من ذلك الماضي الذي عاشه.. يندفع قائلاً:

- كل صيف من كل عام، كانت قافلة الملح تنطلق، باتجاه بحيرة الجبول، تباري الفرات حتى لا تموت عطشاً، مجموعة من الرجال القساء، في فورة شبابهم، وذروة تألقهم، تبدو الخشونة في حركاتهم، والرجولة في سواعدهم وأصواتهم، يحملون أسلحتهم، وأكياسهم الفارغة، على ظهور أباعرهم القوية، ويمضون في طريق وعرة، يهتدون بالنهر والنجوم، يسمونها بأسماء ورثوها عن أسلافهم، فهذا درب التبانة، وذاك مسحال الكبش، ونجم سهيل، وعند المساء، يختارون ثلعة مفردة، أو نشراً من الأرض، يوقدون نارهم ويتقاسمون طعامهم الشحيح من إقط جاف وتمر أو صميل، وهم شاكرون، ثم يتناوبون الحراسة، وقد أرخوا لخيالهم العنان ذاكرين حبيبات بعيدات أو زوجات عاشقات، وهم يصيخون السمع لكل نامة أو حركة، خوفاً من تسلل عدو غادر، أو لص فاتك، أو داب، والدروب تتشابك ثم تفترق كأصدقاء لا يلوون على شيء، ولكي يخففوا من وطأة الطبيعة، وقسوة الصمت، تتردد أغانيهم الحزينة على ضفاف الفرات، تدخل أدغال الغرب والطرفاء، وتلوذ بالجروف العالية، أو أقرط السوس البنفسجية، وقد تختلط بطمي الماء الأحمر، وحول النار لا يجدون غير حكايات الرجال وأيام القبائل والثارات، يقتلون بها الوقت والغبار والخوف والشمس التي تشوي البيضاء، وتُسقط مَحَّ

العصفور بنيرانها التي لا ترحم. رجال ملثمون على أباعرهم القويّة، يخلفون النهر وراء ظهورهم، ويستقبلون الحماد معرّضين للنهب أو الموت، وحلمهم الوصول إلى بحيرة "الجُبُول" حيث الملح، ونهاية المطاف، ليملؤوا أكياسهم بالذهب الأبيض وسرّ الحياة، ويرجعوا إلى ديارهم غانمين، غير عابئين بكائن، فالحياة بلا ملح لا طعم ولا معنى لها، ثم انتهى كل ذلك.

. وكيف انتهى؟! .

سأل الشاب الجالس أمام جابر الحامدي.. فردّ:

. كما تنتهي كل الأشياء الجميلة.

. لا أفهم.

. بالموت.

. الموت؟! .

ردّ الشاب.. فتابع الحامدي:

- نعم.. فالزمان يموت، والمكان يموت، والإنسان يموت، والفرات الذي تراه سيأتي يوم ويموت فيه هو الآخر.

. أنت تقول كلاماً غريباً.

- اسمع.. يوم جاء التجار من حلب، وفتحوا مغازاتهم ومتاجرهم مات ذلك الزمن الجميل، حيث توقفت القوافل عن الرحلة، فالملاح يأتيك إلى بيتك... فعلام الرحلة؟! أولاد الحرام قتلوا ذلك الزمن.. وقبلنا بذلك.

وسكت جابر الحامدي.. والمكان يتحول إلى زمان سائل لا طعم له، ثم هبّ واقفاً، وسار نحو المخرج.

14. بطل من هذا الزمان:

كان يحب الثروة.

ويجيد اختراع القصص الطريفة عن قريته، ويجيد الانحناء والتلوي كذبابة ماهرة، دأب على ذلك، حتى تحصّل على وظيفة هامة، فاستكبر على مَنْ هم دونه، وتضاعل أمام مَنْ هم أعلى منه، ولأنه ظن نفسه بطلاً من هذا الزمان، تباهى، وفاخر، حتى خافه الأذنون قبل الأبعدين، ثم أعلن عن مكتبة من العطر وربطات العنق والأقلام الذهبية.

ويوماً فاجأه مجيء المدير العام، فاستعد له، فرسم ابتسامة خاصة، ألصقها على شفتيه، ثم اختار أكثر الألوان صخباً في ثيابه، فبدا مثل ببغاء مكسيكي ساخر فرّ من قفصه، أو مهرج يمثل دوراً مضحكاً في مسرحية هزلية، يمارس فيها الثرثرة والدوران.

وجاء المدير العام وحيداً في سيارته، لأنه كان يؤمن بالعزلة وعدم الاختلاط بالناس، ولا رفيق له سوى كلبه المدلل، يستمع إلى نباحه اللطيف طوال الطريق، وهو يربت على رأسه، ويشكر الله على نعمة الشراسة التي يحملها في دمه.

. تغيب طويلاً؟!

سألته زوجته.. فردّ:

. حسب الظروف.

قال لها، ثم انطلق.

ولأن الطريق كان طويلاً، وصل الرجل المهم متوتراً، وحاقدًا على المهمة والبرد والبلد، فاستقبله مرؤوسه بحرارة، عدّها رفع كلفه وقلة تهذيب، فازداد هياجاً، وتمالك نفسه، ولم ينتظر، فقد قرر ألا يضيع وقته، فدعا الرجل إلى الانطلاق معه في مهمته، التي جاء من أجلها فالنوم في حلب سيكون أكثر راحة له.

وانطلق الرجلان في طريقهما إلى المشروع لمعاينته، وقد جلس الموظف إلى جانب المدير العام، والكلب في الخلف، ومثل سيل اندفع الموظف المذكور في ثرثرته، وحكاياته السمجة. فالتفت إليه المدير العام قائلاً بنزق وهو يوقف السيارة: . عجل في كلامك، فالكلب يشعر بالبرد، ويجب أن يأخذ مكانك. . أمرك سيدي.. فلا أريد أن يمرض كلبك بسببي.

وفتح الباب ليعود إلى المقعد الخلفي، بينما قفز الكلب إلى جانب، وساد الصمت في الداخل إلا من نباح الكلب الخفيف، وأصابع المدير تربت على رأسه، وقد عادت الابتسامة إلى شفتيه.

15. حكاية حبّ ساذجة:

في الحارة سكن عروسان شابان عاشقان.

عرفت بحكاية حبهما الحارة، كان الرجل يدعى عارف، والمرأة "دونا"، وكانت طبيعة عمل الرجل، تتطلب الغياب أياماً عن البيت، فهو بائع دَوَاج، يرحل ببضاعته الرخيصة إلى القرى، يقايض ما يحمله من بضاعة على حمارة بالصوف والسمن والقطن.

. عارف.. لن تغيب طويلاً؟!

. ستظل روح عارف تحرسك.

حوارية قصيرة تدور بين عاشقين.

وبمكر المرأة الخالد، اكتشفت نسوان الحارة حكاية الحب، فإذا ما طال غياب الرجل عن بيته، وبدأت دونا بالقلق، والارتجاف كسعف النخل.. رددن بصوت واحد مثل كورس يوناني:

. عارف مات.. يا مسخّمة يا دونا.

فتخرط "دونا" في بكاء طويل، فالطرقات خالية، واللصوص كثيرون، وليس لها أحد سوى عارف، فهو دنياها، وعالمها الصغير، فإذا ذهب، ذهب كل ذلك.

وتشبع النسوة من السخرية المرّة، وهنّ المقهورات أكثر من "دونا" والعائبات على القدر، لأنهن محرومات أكثر منها من نعمة العشق.

وحين يطرق عارف الباب، تهرع "دونا" لتجد رجلها أمامها بلحمه وشحمه، ضاحكاً من جنونها، فيختلط الضحك في البكاء كالماء والتراب، ليكون الطين.

ورغم تكرار الحالة، ظلت دونا تصدق ما تقوله نسوان الحارة وكل ذلك سببه أن دونا صغيرة تصدق كل ما يقال لها.

16. درس في الحساب:

خالد البطران شاب من بلديتي..

وكأيّ فراتي شرب من ماء النهر، وتمرّغ جسده المعافى بالرمل والحصى، ولد ليكون رجلاً، مسكوناً بالشمس والشماس، وهو من عائلة ورثت قديماً تجارة الخيل، وتربية الخيل، والمعرفة الحجة بأنسابها وسلالاتها الأصيلة، ليس لي قريباً قرابة دم، ولا صديق طفولة، فأنا أكبره سنّاً. وإن كانت لي معرفة بحكم العمل بأبيه وأعماله. ومع ذلك توثقت عرى الصداقة بيننا، والسبب عشقنا المشترك للنهر، وساعات الغروب الساحرة، فقد كنت ألقاه مساء مع حصانه الأشهب، يشرف على غسله من العرق، وتنظيفه مما علق به، يقوم بذلك في شبه خشوع، فتدور بيننا أحاديث عابرة، أغلبها حول الخيل، وطباع كل سلالة منها.. فيؤكد لي وهو يهزّ رأساً مثقلة بالأفكار:

- الأصيلة إذا عثرت رجعت، يستحيل أن تكمل سيرها، وإذا مات خيالها قد تموت بعده، فهي أوفى من النساء.
. دائماً؟!

- إلاّ إذا خالط دمها دم هجين، حينذاك تفسد طباعها وطباع سلالتها من الذكور والإناث.

وبعد حصول خالد على شهادة "البريفيه" بصعوبة، أعلن نهاية مشواره العلمي، فقدّم طلباً للعمل في دائرة المعارف، ولأنّهم أحدثوا مدرسة ريفية متطرفة عن المدينة، فُبل طلبه معلماً وكيلاً في المدرسة، وكان نصيبه تعليم مادة الحساب التي تلائم إمكاناته وقدراته.

وقد انبهر التلاميذ. ومعظمهم من الأطراف. بشخصية المعلم الجديد، الذي يقدم صباحاً على حصانه الأشهب، ومسدسه الحربي على خاصرته، قد برز

كعبه، ولانعدام وسائل الإيضاح في المدرسة المحدثه، أصبح مسدس المعلم الجديد وسيلة الإيضاح الوحيدة، فالرصاصات الموجودة في المخزن، استخدمها في الجمع والضرب بسهولة، أما الطرح فلجأ إلى طريقة مبتكرة، خاصة وسقوف المدرسة من أغصان الشجر، فقد كان يخرج مسدسه كالحاوي، ويبدأ في إفراغ مخزنه... قائلاً:

. الآن لدينا ست رصاصات.. قلنا كم؟؟

. ست رصاصات يا أستاذ.

. إذا طرحنا منها رصاصتين.. يبقى؟

ويفلاً المخزن بالرصاصات الست.. ثم يستدير شاهراً، ويطلق رصاصتين، فيملأ الدوي فضاء المدرسة التي اعتادت ذلك، وحين يعود المعلم ليواجه التلاميذ الصغار، لا يجد أحداً على المقاعد، فقد لاذوا كالأرانب المذعورة تحت المقاعد، خائفين، مذعورين، شاحبي الوجوه، وينتظر حتى ينهضوا، فيتابع:

. يبقى إذن أربع رصاصات.

ويوم جاء المفتش من دير الزور، وحضر درس الحساب لم يكن هناك مسدس أو رصاصات مع خالد البطران، ومع ذلك حين قال لهم كالعادة:

. يبقى!؟

وتقدم نحو السبورة، لتثبيت الجواب، صعق مفتش الحساب المسكين، عندما شاهد التلاميذ يختفون تحت المقاعد، وكأن صاعقة سوف تنزل عليهم، ولم يفهم في البداية شيئاً، وحين فهم، أوقف المعلم عن العمل. فعاد خالد البطران إلى النهر والخيل سعيداً.. وكأنه ربح العالم.

17. ندى للصبح الشاحب:

تخطيطات أولية لقصة لم تكتب بعد .

* أبدأ بألقابك ولا أسميك .

* أنت سيدة هذا النهار، وأزهار الليلك، والعزلة، والنار، والرغبة المواربة،
والليل، والدلافين المرحية، والتأويل، والرؤيا، والأبواق الملكية، وأباريق الذهب .

* سيدة الزمان والمكان ..

* وشاح هذه السيدة يمتُّ بصلة نسب إلى النار، بينما يمت جيدها بصلة
نسب إلى الثلج، فمن آخى بين الثلج والنار!؟

* أشمُّ من شعرها رائحة الحناء وأزهار النارج قبل أن تأخذ إلى حرم النصِّ
المقدس .

* بيدي زينتها بزهر الأرعوان الأحمر، وفرشت لها سريراً من الشمشاد
ورعلات الكرمة والزيزفون ..

* تقول بعد الكأس الثالثة:

. مولهة أنا سيدي .

* أقول بعد الكأس الرابعة:

. مدله أنا سيدتي ..

* تقول:

. في أيِّ مقام نحن؟

* أقول:

. بعد كل كأس مقام.

* تقول:

. كيف!؟

* أقول:

- سكر، ثم محو، ثم سهو، ثم صحو، ثم صعق وهو المشتهى وتمزيق الحجب، وقد وجب.

فتغمض عينيها سادة.

* في دير المجوس دعاني الديار، فجلست إلى جام الألق، وشفتي لازية، أسرح لغتي بمشط من العاج والسهو، فيتهدل شعرها كرفرف أثيث يغطي تلج صدرها، فيهدل الحمام الناهض.. ويزقو.. فتهمس:

. الخدر أنساك النص.. فحاذر.

* رجل ينتظر في أحد معابر النص ندى لصباحه الشاحب.. ليبدأ.

* موتيفات للنص:

. امرأة تنام في ضلوع الرجل مثل برد الشتاء.

. امرأة... دورق من نبيذ.. وسمكة في صحن.

. شبطه من الطرفاء وحيدته تبوح بأملاحها للنهر.

18. نقرات الدفّ:

كانت جموع العابرين كثيفة ذلك العام.
بدو قادمون باتجاه بادية الشام، بدو قادمون من الجزيرة العليا، صُنْبُة،
وكوجر محيرو الأصل على حميرهم الشهريّة المعروفة، قرياط ونُور، كلهم عبروا
مع كلابهم وقطعانهم وعائلاتهم، لم يكن لبثهم طويلاً، كانوا يتدافعون على عجل،
وهم يصيحون، ويصخبون، ويلعونون، ويلتهمون كل ما في طريقهم كالجراد،
مخلفين وراءهم الخراب والدمار والخسارة.
. هؤلاء البدو غير معقولين، حيثما مرّوا تركوا الدمار.
قال أحد الفلاليح، وهو يرقب بحزن حقله الذي تحول إلى مجزرة خضراء
لسيقان الذرة والقطن.
. إنهم لعنة من الله، وغضب على العباد.
قال عساف الأشعل، وهو يحصي خسائره، ويكاد يبكي من القهر والمرارة.
. لصوص وسلالة إبليس هؤلاء البدو.
قال عثمان الساير، وقد هاله الدمار الذي لحق بكوخه الذي ينام فيه ليلاً
ليرتاح بعد السقاية، وينظر منه الزرع. ثم تابع بألم:
. حتى هروش الخيار والبطيخ أكلوها.. شرار ونار في بطونهم.
ومضى العابرون، فركد العجاج والغضب، واستسلم الأهالي لقدرهم، فعادوا
يصلحون الخراب بصبر وعناد، ولكن المفاجأة التي كانت تنتظرهم وجود شاب
مريض، خلّفه العابرون مع ناقّة وفراش رث، تحت شجرة غرب عجوز عند ضفّة
النهر.
وچار الأهالي، واختلفوا، ثم اتفق بعض العقلاء، فعرضوه على طبيب،

وصف له بعض الأدوية، ثم اتفق الشاب المريض مع أحد الفلايح الفقراء للعناية به، فإذا مات فالناقة له.

ونسي الناس أمر الشاب في زحمة مشاغلهم، ثم انتبهوا إلى وجوده حين أوقد ناراً عالية، رآها الرعيان والفلايح، وبدأت تتجاوب في الأمسيات نقرات دف كان معه، فيتحول المكان إلى دنيا من الأناشيد والمشاعر، فتنهفو النفوس . مهما كانت جاسية . إلى السماع والخشوع وربما البكاء من الداخل، للتطهير والعودة إلى الهدى.

ويوم مرّ بعض الأتراك في طريق عودتهم به، تحدثوا إليه طويلاً، وتسامروا ليلتهم، يستمعون إلى نقرات الدف، ويرددون أناشيد غامضة بلغتهم، وبعد رحيلهم، ظلّ الرجل في مكانه أياماً لا يتكلم، ونقرات دفه تتردّد على ضفاف الفرات.

ويوم قرر الرحيل لأسباب، لم يفصح عنها، دفع للرجل العجوز الذي أشرف على خدمته ديناراً ذهبياً، ثم ركب ناقته ميمماً صوب بادية الشام.
ومنذ ذلك اليوم سكنت نقرات الدف، والأناشيد الصوفية، وظلت شجرة الغرب تنتظر قادماً آخر، يحمل دفاً أو خنجراً.. لا فرق.

صدر للكاتب:

<p>- غدير الحجر. - مال الحضرة. - أرغفة النعاس. - الورل. في النقد: - الميراث الدموي. في الشعر: - موكب من رناد المودة والشبهات.</p>	<p>في الرواية: - حارة البدو. - الضباغ. - الهدس. - وشم الحناء. - سونوم. في القصة: - البحث عن سعدون الطيب. - البازيار الجميل.</p>
---	---

الفهرس

6	*إشارة:.....
9	1- الطريق إلى إيالة الخراب.....
28	2. "بنات آوى... تنتظر".....
42	3- نياشين الهباء.....
58	الموتى لا يعضون.....
67	ظهورات السيدة الجميلة.....
69	*الظهور الأول.....
73	*الظهور الثاني:.....
76	*الظهور الثالث.....
78	*الظهور الرابع:.....
81	*الظهور الخامس:.....
83	*الظهور السادس:.....
85	*الظهور السابع:.....
89	فساد الملح.....
91	1-الدورة:.....
93	2 - دُين صغير:.....
94	3- رجل مستقل:.....
95	4-حمير سعدو البكاري:.....
97	5-مجنون الجسر:.....
99	6-حرص:.....
100	7-مشكلة:.....
101	8-الدين ممنوع:.....
103	9-أسلاف:.....
104	10. ثورة في خان:.....
106	11. رأيت غجراً غير سعداء أيضاً:.....
108	12. من حكايات قُوام المقام:.....
108	* الحكاية الأولى:.....

109.....	* الحكاية الثانية:
109.....	* الحكاية الثالثة:
111.....	13.فساد الملح:
113.....	14.بطل من هذا الزمان:
115.....	15.حكاية حبّ ساذجة:
116.....	16.درس في الحساب:
118.....	17.ندى للصباح الشاحب:
120.....	18.نقرات الدفّ:
122.....	صدر للكاتب:
123.....	الفهرس
